آلان لايتمان



أحلام آينشتاين

رواية

ترجمة
أسامة اسبر



للثقافة والنشر والإعلام

آلان لايتمان

أحلام آينشتاين

رواية

ترجمة

أسامة إسبر

للثقافة والنشر والإعلام

آلان لايتمان: أحلام آينشتاين

Book: Ahlam Einstein

الكتاب: أحلام آينشتاين

Alan Lightman

ترجمة: أسامة إسبر

Translated By: Osama Esber

First Edition: 2015

الطبعة الأولى ٢٠١٥



للثقافة والنشر والإعلام

طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Tel: 009662108111 - 00966505481425

Email: Tuwa.pub@gmail.com

التوزيع: منشورات الجمل

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ISBN 978-9933-35-216-5

حول الرواية والمؤلف

ثمة مكان يقف فيه الزمن ساكناً. قطرات المطر معلقة في الجو بلا حراك. تتدلى نواسات الساعات في المنتصف، كمسافر يتحرك متباطئاً أكثر فأكثر ليدنو من هذا المكان من أية جهة.

إنها سنة ١٩٠٥ في مدينة بيرن السويسرية. كان موظف براءات اختراع شاب يحلم أحلاماً مدهشة عن طبيعة الزمن. إنه ألبرت آينشتاين الذي أوشك على الانتهاء من نظرية النسبية. كيف كانت أحلامه في تلك الأشهر القليلة الأخيرة والمهمة جداً؟

هنا، في هذه الرواية الفريدة، التي احتُفي بها كثيراً، وعلى مستوى رفيع، والتي ألفها عالم الفيزياء آلن لايتمان، تستحضر ثلاثون حكاية خرافية عوالم نظرية عديدة حول الزمن، كانت مواضيع أحلام في ليال كثيرة.

إنّ الزمن دائري في أحد العوالم، مقدّر على سكانه أن يكرروا النجاح والفشلَ مرة تلو أخرى... وفي عالم آخر يحاول الرجال

والنساء الإمساك بالزمن، الذي يبدو كعندليب في إناء يشبه الجرس، وفي آخر لا يوجد زمن، ثمة لحظات متجمدة فقط.

وهذه كلها رؤى تسبر جوهر الزمن، مغامرة الإبداع، عظمة الاحتمال وجمال... **أحلام آينشتاين.**

آلن لايتمان

وُلد آلن لايتمان في ممفيس، ولاية تينيسي سنة ١٩٤٨ ودرس في جامعة برنستون ومعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا. كتب لصحف ومجلات أميركية مرموقة وألّف عدداً من الكتب منها: انتقال الزمن وغليون بابا جو، يانكيّ حديث في محكمة بكونيكتيكت، أصول، الضوء القديم، أفكار عظيمة في الفيزياء وزمن النجوم وأحلام آينشتاين هي روايته الأولى.

يدرِّس لايتمان الفيزياء وفن الكتابة في معهد ماسّاتشوسيتس للتكنولوجيا.

مما قيل في الرواية

رواية متألقة عن الزمن في طيرانه المدهش... مكتوبة بأسلوب بديع، ساحرة، عميقة التأثير.

شيكاغو صن تايمز

مزج لايتمان مواهبه بنجاح ليُبدع عملاً متخيلاً يستقصي دوافع عالم عظيم.

دالاس مورنينغ نيوز

رواية غرائبية وتأملية، لعوب ومثيرة... تشد القارئ إلى عالم حلمي كمثل مغناطيس قوي، إن العناصر الفانتازية في القصة تستند إلى نثر دقيق وواضح مثل أعمال كالفينو.

نيويورك تايمز

رواية انطباعية... الكتابة بسيطة وجميلة، تعبّر بشكل أفضل من معظم النصوص عن غرابة أفكار آينشتاين.

تايمز

عمل روائي جميل يستقصي طبيعة الإبداع، يُقربك من عالم آينشتاين الداخلي... لايتمان كاتب رائع.

مينيبوليس ستار تربيون

رواية جريئة، منجزة بذكاء وفكاهة.

بابليشرز ويكلي

تقارب هذه الرواية اللعب الفكري لآينشتاين الذي يُقال عنه إنه عمل كفنان عبر الخيال والحدس أكثر مما عمل كعالم.

فيلج فويس ليتريري سبليمنت

رواية تجتاز بعض اختبارات العمل الكلاسيكي: تحّرض على إعادة قراءة فوريّة ولا يمكن أن يحل وصفها مكان تجربة قراءتها. إنها قصيرة جداً لكنها تبقى طويلاً في الذاكرة.

نيتشر

رواية أولى ممتازة.

تايمز ليتريري سابليمنت (لندن)

هذا كتاب قصيرٌ ومدهش ويجب أن يقرأه حتى الأكثر إنشغالاً بيننا...

ستريت بيتسبرغ تايمز

رواية أولى مدهشة... تأخذنا إلى أبعد مما اعتدنا أن نُؤخذ إليه... أصيلة... وذكية.

ساندي تايمز (لندن)

متعة.

الايكونوميست

رواية رائعة تضعه فوراً في الصفوف الأمامية لكتاب الواقعية السحرية: كالفينو، يورخس ولوسيوس شيبارد.

بالم بيتش بوست

إن رواية آلن لايتمان خلاّبة، بعيدة النظر، قويّة، طريفة، إيروسيّة، مثيرة وتنويرية. إنها عمل أدبي كلاسيكي بسيط ومعقد في آن. إن فكرنا يتجدّد مع كل صفحة.

ممفيس كوميرشيال أبل

رواية فائقة للعادة... توازن بدقة بين الشعر واللغة الفيزيائية البسيطة... ويدخل لايتمان القارئ إلى أعمال ذهن علمي خلاق.

كيركاس ريفيوز

كتابٌ صوفيٌّ رائع وغريب وذكي حول التأملات في الزمن، شعري وجديد.

شيكاغو تريبيون

كتابٌ ساحرٌ.

واشنطن بوست بوك وورلد

رواية فاتنة. تحقيق خلاب حول الطبيعة البشرية السامية والمأساوية والعالقة بالزمن.

ممتعة... لايتمان فنانٌ يرسم مفهوم الزمن... استقصاء لطبيعة الزمن الماكرة.

لوس انجلوس تايمز

رواية محرضة للتفكير... ممتعة للقراءة.

وول ستريت جورنال

مقدمة

في رواق مقنطر ما تدقُّ ساعةُ برجٍ ستَّ مراتٍ وتتوقف. يتهاوى الشاب على مكتبه. جاء إلى الدائرة فجراً بعد إزعاج آخر. شعره غير ممّشطٍ وبنطاله فضفاض يحمل بيده عشرين صفحة مجعّدة تحوي نظريته الجديدة في الزمن التي سيرسلها إلى مجلة الفيزياء الألمانية.

تدخل الغرفة أصواتٌ خافتةٌ قادمة من المدينة. تطنُّ زجاجة حليب على حجر. تتقلقل ظُلة حانوت في السوق، تتحرك عربة خضار ببطء في الشارع، يتحدث رجل وامرأة بنبرتين هامستين في شقة في الجوار.

في الضوء الباهت الذي يتغلغل في الغرفة تبدو المقاعد مظللة وناعمة كحيوانات ضخمة نائمة. وباستثناء مكتب الشاب الذي تتبعثر عليه كتب نصف مفتوحة، كانت المكاتب الاثنا عشر مليئة بسجلات تُركت البارحة مرتبة بأناقة. حين يصل الموظفون بعد ساعتين سيعرف كل منهم أين يبدأ بدقة. لكن، في هذه اللحظة، في هذا الضوءِ الباهت، ليست السجلات التي على المكاتب مرئية أكثر من الساعة الكبيرة التي في الزاوية أو كرسي السكرتيرة قرب

الباب. إنّ كلّ ما يمكن أن يُرى في هذه اللحظة هو الأشكال الداكنة للمكاتب والشكل المحدّب للشاب.

إنها السادسة وعشر دقائق وفقاً لساعة الحائط اللا مرئية. لحظة بعد لحظة، تتخذ أشياء جديدة أشكالاً. هنا تظهر سلة مهملات نحاسية، هناك يبين تقويم على الحائط.

هنا صورة عائلةٍ، علبة مشابك للأوراق، محبرة، قلم حبر. هناك آلة كاتبة، سترة مطوية موضوعة على كرسي.

مع مرور الزمن تبزغ رفوف الكتب التي لا يخلو منها مكان من ضباب الليل العالق على الجدران. تحمل الرفوف دفاتر براءات اختراعات. إحدى البراءات عن آلات حفر مسنّناتها محنية بطريقة تقلل الاحتكاك. تقترح أخرى محولاً كهربائياً يحمل فولطاً متواصلاً حين يتنوع تزويد الطاقة.

تصف براءة اختراع أخرى آلة كاتبة بلوح طباعة منخفض السرعة يزيل الضجة. إنها غرفة مليئة بالأفكار العملية.

في الخارج تتوهّج جبال الألب تحت الشمس. الوقت أواخر حزيران. مراكبيٌّ في نهر آري يفكُّ قاربه الصغير ويندفع تاركاً التيار يحمله إلى شارع غيربرن ناقلاً تفاحه الصيفي وثمار العليق. يصل الخباز إلى مخبزه في السوق، يشعل فرنه الفحميّ ويباشر العجْنَ. يتعانق عاشقان على جسر نيديك ويحدّقان بتمعّن إلى الأسفل. يقف رجل على شرفة منزله في شيفلاوبي ويدرس السماء القرنفلية. تسير

امرأة استحوذ عليها الأرق ببطء في شارع كرام، تحدّق إلى جميع الأروقة المقنطرة وتقرأ الملصقات في الضوء الخافت.

في المكتب الطويل الضيّق الذي يقع في شارع شبايشا، في الغرفة المليئة بالأفكار العملية ما يزال موظف براءات الاختراعات الشاب جالساً على كرسيه ورأسه على المكتب: في الأشهر العديدة الماضية ومنذ منتصف نيسان حلم أحلاماً كثيرة عن الزمن. هيمنت أحلامه على بحثه. أنهكته أحلامه، استنفذته بحيث أنه لا يستطيع أحياناً أن يميِّز بين نومه ويقظته. لكن عملية الحلم انتهت. ومن بين طبائع الزمن الكثيرة الممكنة المتخيلة في ليال كثيرة أيضاً تبدو إحداهن مغرية. لا يعني هذا أن الأخرى مستحيلة. يمكن أن توجد الأخرى في عوالم أخرى.

يتحرك الشاب على كرسيه منتظراً مجيء ضاربة الآلة الكاتبة ويدندن بصوت منخفض ألحاناً من سوناتا ضوء القمر لبيتهوفن.

١٤ نيسان ١٩٠٥

افترضْ أن الزمن دائرة تكرّر نفسها، عندئذ يكرر العالم نفسه بدقةٍ وبلا نهاية.

لا يعرف البشر في معظم الحالات أنهم سيكررون حيواتهم. لا يعرف التجار أنهم سيعقدون الصفقة نفسها مرة تلو أخرى. يجهل السياسيون أنهم سيصيحون عن المنصة نفسها عدداً لا نهائياً من المرات في دورات الزمن. يسمع الوالدان ضحكة طفلهما بولعٍ وكأنهما لن يسمعاها مرة ثانية. يتعرّى العشاق الذين يُمارسون الجنس للمرة الأولى بخجل ويندهشون من منظر الفخذ الريّان والحلمة الهشّة. كيف سيعرفون أن جميع النظرات السرية، وجميع اللمسات، ستتكرر مرة تلو أخرى، كما حدث من قبل؟

وكذلك هو الأمر في السوق. كيف يعرف البقالون أن جميع الكنزات المصنوعة يدوياً، وجميع المناديل المطرزة، وحبّات الشوكولاته، وساعات اليد والبوصلات المعقدة ستعود إلى دكاكينهم؟ يعود البقالون إلى عائلاتهم بعد الغروب أو يشربون البيرة في الحانات وينادون بمرح الأصدقاء الذين في الأزقة المقنطرة،

يداعبون كلَّ لحظة وكأنها زمرّدة في إيداع مؤقت. كيف يعرفون أن لا شيء مؤقتاً، أن كلّ شيء سيحدث مرة ثانية؟ لا شيء يعرف أنه سيعود إلى حيث بدأ سوى نملةٍ تزحف على حافة ثريا كريستالية.

في المستشفى الذي في شارع غيربرن تودع امرأة زوجها الذي يستلقي في الفراش وهو يحدجها بنظرة فارغة. انتشر سرطانه في الشهرين الأخيرين من حنجرته إلى كبده وبنكرياسه ودماغه. يجلس طفلاه اليافعان على كرسي واحد في زاوية الغرفة خائفين من النظر إلى والدهما، إلى خديه الغائضين والجلد الذاوي لرجل عجوز. تقترب المرأة من الفراش وتقّبل زوجها بنعومة على جبهته. تهمس مودعة ثم تغادر بسرعة مع الولدين. إنها متأكدة أنها كانت القبلة الأخيرة. كيف تعرف أن الزمن سيبدأ ثانية أنها ستولد ثانية وستدرس مرة أخرى في الجيمنازيو، وتعرض لوحاتها في صالة في زيوريخ، وستلتقي ثانية بزوجها في مكتبةٍ صغيرة في فرايبورغ، وتبحر معه ثانية في بحيرة زن في يوم من أيام تموز الدافئة، وأنها ستنجب ثانية، وأن زوجها سيعمل ثانية ثماني سنوات في مجال الأدوية ويرجع إلى المنزل في أحد المساءات بكتلة في حنجرته. سيتقيأ ثانية ويهزل وينتهي في هذا المستشفى، في هذه الغرفة، هذا الفراش، هذه اللحظة. كيف تعرف؟

في العالم الذي يكون فيه الزمن دائرياً ستتكرر جميع المصافحات والقبلات والولادات والكلمات. وهكذا أيضاً كلّ

لحظة ينهي فيها صديقان صداقتهما، كلّ مرة تتفكك فيها أسرة بسبب النقود، كلّ ملاحظة فاجرة في خصومة بين الزوجين، كلّ فرصة ضاعت بسبب غيرة رئيس، كلّ وَعْدٍ لم يُنجز.

وتماماً كما ستتكرر جميع الأشياء في المستقبل، فإن جميع الأشياء التي تحدث الآن حدثت مليون مرة من قبل. قلّة ما من البشر في كل بلدة، تدرك بغموض في أحلامها أن كل شيء حصل في الماضي. هؤلاء هم البشر ذوو الحياة الشقية، الذين يشعرون أن خطل محاكماتهم وأفعالهم الخاطئة وحظهم السيئ حدثوا في دورة الزمن السابقة.

يصارع هؤلاء المواطنون الملعونون أغطية أسرتهم في منتصف الليل غير قادرين على النوم مرّوعين من معرفة أنهم لا يقدرون على تغيير فعل واحد، إيماءة واحدة. ستتكرر أخطاؤهم في هذه الحياة كما في الحياة التي سبقتها. وهؤلاء، ذوو الحظ السيء المضاعف، هم الذين يقدمون الإشارة الأولى على أن الزمن دائرة. ذلك أنه في البلدات كلّها، وفي وقت متأخر من الليل، تمتلئ الشوارع والشرفات الخالية بأنينهم.

١٦ نيسان ١٩٠٥

في هذا العالم الزمن كمثل دفقة ماء، يزيحه أحياناً بعض الحطام، نسيم عابر. بين فينة وأخرى يسبب إزعاج كوني ما انحراف جدول من الزمن عن التيار الرئيسي ليحدث اتصالاً مع التيار الخلفي. حين يحدث هذا فإن الطيور والتربة والبشر العالقين في الرافد المتفرع يجدون أنفسهم فجأة محمولين إلى الماضي.

من السهل تحديد البشر الذين نُقلوا إلى الوراء في الزمن. يرتدون ملابس سوداء غير قابلة للتمييز ويسيرون على أصابع أقدامهم محاولين ألا يصدروا صوتاً واحداً، ألا يحنوا عشبة واحدة. ذلك لأنهم يخافون من أن أي تغيّرٍ يحدثونه في الماضي يمكن أن ينتج عواقب وخيمة جداً على المستقبل.

على سبيل المثال، تتوارى مسافرة في ظلال الرواق المقنطر في شارع كرام، وهذا مكان غريب لمسافرة من المستقبل، لكنها هناك. يعبر المشاة، يحدقون ويتابعون السير. تنزوي في زاوية ثم تزحف بسرعة عبر الشارع وتأوي إلى بقعة أخرى مظلمة. إنها مرعوبة من أنها ستثير الغبار، كما يشق شخص اسمه بيتر كلوسن طريقه إلى

الصيدلية في شارع شبيتال في بعد ظهر ١٦ نيسان من عام ١٩٠٥. كلوسن شخص مسرف في الأناقة ويكره أن تتسخ ثيابه. إذا لطخ الغبار ثيابه سيتوقف وينفضها بهمة بغض النظر عن المواعيد المنتظرة. إذا تأخر كلوسن، يمكن ألا يشتري المرهم لزوجته التي كانت تشكو من ألم ساقها طول أسابيع. في تلك الحالة يمكن أن تقرر زوجة كلوسن وهي في مزاج سيء ألا تنفذ الرحلة إلى بحيرة جنيف. وإذا لم تذهب إلى بحيرة جنيف في ٢٣ حزيران ١٩٠٥ لن تلتقي بامرأة تدعى كاثرين دي إباني وهي تسير على جدار الشاطئ الشرقي ولن تعرّف السيدة دي إيباني على ولدها ريتشارد. وبالتالي لن يتزوج ريتشارد وكاثرين في ١٧ كانون الأول ١٩٠٨ ولن ينجبا فردريك في ٨ تموز ١٩١٢. ولن يصبح فردريك كلوسن أباً لهانز كلوسن في ٢٢ آب ١٩٣٨ وبدون هانز كلوسن لن يحصل الاتحاد الأوروبي سنة ١٩٧٩.

المرأة التي جاءت من المستقبل ورميث دون تحذير في هذا الزمان وهذا المكان وتحاول الآن أن تختفي عن الأنظار في بقعتها المظلمة في شارع كرام تعرف قصة كلوسن وألف قصة أخرى تنتظر الكشف، معتمدة على ولادات الأطفال، حركة البشر في الشوارع، غناء الطيور في لحظات معينة، الموقع الدقيق للكراسي، والريح. تكمن في الظلال ولا تستجيب لتحديقات البشر. تكمن وتنتظر جدول الزمن ليحملها ويعيدها إلى زمنها الخاص.

وحين يجب أن يتحدث مسافرٌ من المستقبل، فإنه لا يتحدث بل يُوَهْوِهُ. يهمس أصواتاً معذّبة، يتألم لأنه إذا أحدث أدنى تبديل في أي شيء من المحتمل أن يدمر المستقبل. في الوقت نفسه، يكون مجبراً على أن يشهد أحداثاً دون أن يكون جزءاً منها، دون أن يغيّرها. يحسد البشر الذين يعيشون في زمنهم الخاص، الذين يستطيعون أن يتصرفوا وفق مشيئتهم غافلين عن المستقبل جاهلين تأثيرات أعمالهم. لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً. إنه غاز هامد، شبح، ورقة بلا روح. إنه منفيُّ الزمن.

يمكن أن يُعثر على هؤلاء البشر البؤساء القادمين من المستقبل في جميع القرى والبلدات مختبئين تحت أفاريز الأبنية، في الأقبية، تحت الجسور، في الحقول المهجورة. لا يُسْألون عن الحوادث القادمة والزواج المستقبلي والولادات والتمويلات والاختراعات والفوائد التي ستُجنى. وبدلاً من ذلك يُتركون وحيدين يثيرون الشفقة.

١٩ نيسان ١٩٠٥

إنه صباح بارد من صباحات تشرين الثاني. سقطت الثلوج الأولى. يقف رجل يرتدي معطفاً جلدياً على شرفة طابقه الرابع في شارع كرام المطلة على نافورة تسيرغنا وعلى الشارع الأبيض في الأسفل. يستطيع المرء أن يرى في جهة الشرق الصومعة الهشة لكاتدرائية القديس فنسنت، وفي جهة الغرب سقف برج تسوتغلوكاتورم. لكن الرجل لا ينظر شرقاً أو غرباً، بل يحدق نحو الأسفل إلى قبعة حمراء صغيرة متروكة في الثلج ويفكر: أعليه أن يذهب إلى منزل المرأة في فرايبورغ؟ تمسك يداه الدرابزون المعدني وتفلتانه ثم تمسكانه ثانية؟ هل يجب أن يزورها؟ أيجب أن يزورها؟

يقرر ألا يشاهدها مرة أخرى. إنها لعوب وسيئة الظنّ وبوسعها أن تجعل حياته بائسة. ربما لن تكون مهتمة به على أية حال. وهكذا يقرر ألا يراها ثانية وينصرف إلى مصادقة الرجال. يعمل بجد في مجال الأدوية حيث نادراً ما يلاحظ وجود مساعدة المدير. يذهب إلى صالة احتساء البيرة في شارع خوكر في أوقات المساء

مع أصدقائه ويشرب البيرة، يتعلم صنع الفونديو[1]، ثم يلتقي بعد ثلاث سنوات بامرأة أخرى في محل لبيع الألبسة في نيوشاتل. إنها ظريفة. تمارس معه الحب ببطء شديد طول شهور. بعد عام، تأتي لتعيش معه في بيرن. يعيشان حياة هادئة، يتنزهان على ضفة نهر آري، يتصادقان، يشيخان راضيين.

في العالم الثاني يقرر الرجل الذي يرتدي معطفاً جلدياً أنه يجب أن يشاهد امرأة فرايبورغ مرة أخرى. لا يكاد يعرفها، يمكن أن تكون لعوباً ومتقلبة. لكن، تلك الطريقة التي يصبح فيها وجهها ناعماً حين تبتسم، تلك الضحكة، ذلك الاستخدام الذكي للكلمات، نعم، يجب أن يشاهدها مرة ثانية. يذهب إلى منزلها في فرايبورغ، يجلس معها على الأريكة، يشعر بعد لحظات أن قلبه يخفق، يضعف من مشهد بياض ذراعيها. يمارسان الحب بصخب وشوق. تقنعه بالانتقال إلى فرايبورغ. يترك عمله في بيرن ويتوظف في مكتب فرايبورغ البريدي. يُولَّهُ بها، يجيء إلى المنزل ظهراً كل يوم. يأكلان، يمارسان الحب، يتجادلان، تشكو أنها تريد مزيداً من النقود، يتوسل إليها، تقذفه بالآنية، يمارسان الجنس مرة أخرى، يعود إلى مكتب البريد. تهدد بأنها ستتركه لكنها لا تفعل ذلك. يعيش من أجلها وهو سعيد بكمده.

---

(١) الفونديو fondue: لون من الطعام السويسري يصنع من الجبن الذائب في النبيذ الأبيض وينقع فيه فتات الخبز.

في العالم الثالث يقرر أيضاً أنه يجب أن يشاهدها مرة أخرى. لا يكاد يعرفها، يمكن أن تكون لعوباً ومتقلبة. لكن تلك الابتسامة، تلك الضحكة، ذلك الذكاء في استخدام الكلمات. نعم، يجب أن يشاهدها مرة ثانية. يذهب إلى منزلها في فرايبورغ، يلتقي بها عند الباب، يتناول معها الشاي إلى طاولة المطبخ. يتحدثان عن عملها في المكتبة وعن عمله في مجال الأدوية. تقول بعد ساعة إنها يجب أن تغادر لتساعد صديقاً، تودعه، يتصافحان. يسافر قاطعاً مسافة الثلاثين كيلو متراً إلى بيرن، يشعر بالفراغ أثناء ركوب القطار إلى منزله، يصعد إلى شقته في الطابق الرابع ويحدق نحو الأسفل، إلى القبعة الحمراء المتروكة في الثلج.

إن سلاسل الأحداث الثلاثة هذه تجري بالفعل، متزامنة. ذلك أن الزمن يمتلك ثلاثة أبعاد في هذا العالم مثله مثل المكان. تماماً كما يمكن أن يتحرك شيء في ثلاث جهات عمودية تتواشج مع الأفقي والعمودي والطولي هكذا يمكن أن يشارك الشيء في ثلاثة مستقبلات عمودية. يتحرك كل مستقبل في جهة مختلفة من الزمن، وكل من هذه المستقبلات حقيقي. وحين يصل الرجل إلى حافة أي قرار لزيارة المرأة التي في فرايبورغ أو لشراء معطف جديد، ينقسم العالم إلى ثلاثة عوالم كلٌّ منها يحتوي البشر نفسهم ولكن بأقدار مختلفة لأولئك البشر. مع مرور الزمن ثمة عدد لا نهائي من العوالم.

يستخفُّ البعض بالقرارات قائلين أن جميع القرارات الممكنة ستُتَّخذ. في عالم كهذا، كيف يستطيع المرء أن يكون مسؤولاً عن أفعاله؟ يعتقد آخرون أن جميع القرارات يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار ويُلْتَزم بها وأنه بدون التزام يحلُّ العماء. إن بشراً كهؤلاء يرضون أن يعيشوا في عوالم متناقضة طالما أنهم يعرفون سبب كل منها.

٢٤ نيسان ١٩٠٥

ثمة زمنان في هذا العالم: الزمن الآلي والزمن الجسدي. الأول صلب ومعدني كبندول حديدي ضخم يتحرك جيئةً وذهاباً. الثاني يتقلب ويتعرج كسمكة في خليج. الأول لا يلين، محدد مسبقاً. الثاني يتخذ قراره وهو يمضي.

يقتنع كثيرون أن الزمن الآلي غير موجود. حين يمرون قرب الساعة العملاقة في شارع كرام لا يشاهدونها ولا يسمعون دقاتها وهم يرسلون الطرود في شارع بوست أو يطوفون بين الأزهار في روزنكارتن. يلبسون ساعات حول أرساغهم كزينة أو كتجمل لأولئك الذين يقدمون الساعات اليدوية كهدايا. لا يعلّقون ساعات جدارية في منازلهم. بدلاً من ذلك، يصغون لدقات قلوبهم، ويشعرون بإيقاعات أمزجتهم ورغباتهم. يأكل بشر كهؤلاء حين يجوعون، ويذهبون إلى أعمالهم في المتجر أو الصيدلية حين يستيقظون من نومهم، ويمارسون الحب طول ساعات النهار. يسخر بشر كهؤلاء من فكرة الزمن الآلي. يعرفون أن الزمن يتحرك في نوبات وقفزات، يعرفون أنه يصارع نحو الأمام حاملاً ثقله على

ظهره حين ينقلون طفلاً مصاباً إلى المستشفى أو يتحملون تحديقة جار أُسيء إليه. يعرفون أيضاً أن الزمن يندفع مسرعاً عبر حقول الرؤية حين يستمتعون بتناول الطعام مع الأصدقاء أو يتلقون المديح أو يكذبون بين ذراعي عشيقة سرية.

ثم هناك أولئك الذين يعتقدون أن أجسادهم لا توجد، يعيشون وفق الزمن الآلي، ينهضون في السابعة صباحاً. يتناولون غذاءهم ظهراً وعشاءهم في السادسة. يصلون إلى مواعيدهم في الوقت المحدد ومع دقة الساعة. يمارسون الجنس بين الثامنة والعاشرة ليلاً، يعملون أربعين ساعة في الأسبوع، يقرأون صحيفة الأحد يوم الأحد، يلعبون الشطرنج مساء الثلاثاء. حين تصدر معداتهم أصواتاً ينظرون إلى ساعاتهم ليتبينوا إذا حان وقت الطعام، حين ينسون أنفسهم في حفلة موسيقية ينظرون إلى الساعة التي فوق خشبة المسرح ليعرفوا متى يحين وقت العودة إلى المنزل. يعرفون أن الجسد ليس شيئاً ينتمي إلى السحر الوحشي بل مجموعة من المواد الكيماوية والأنسجة والدوافع العصبية ويعرفون أن الأفكار ليست أكثر من اندفاعات كهربائية في الدماغ والإثارة الجنسية ليست أكثر من تدفق المواد الكيماوية إلى نهايات عصبية معينة والحزن ليس أكثر من حمض قليل يثبت في المخيخ. باختصار، الجسد آلة خاضعة لقوانين الكهرباء والميكانيكا نفسها كالإلكترون أو الساعة. هكذا، يجب أن يخاطب الجسد بلغة الفيزياء، وإذا تحدث الجسد

فإن هذا حديث عتلات وقوى كثيرة فقط. الجسد شيء يجب أن يؤمر، أن لا يطاع.

إذا سار المرء ليلاً على طول نهر آري يشاهد دليلاً على وجود عالمين في عالم واحد. يحدد مراكبيٌّ موقعه في الظلام من خلال إحصاء الثواني المندفعة في تيار الماء. ثانية، ثلاثة أمتار، ثانيتان، ستة أمتار، ثلاث ثوان، تسعة أمتار. يخترق صوته الظلمة بمقاطع واضحة ومحددة. تحت منصب مصباح على جسر نيديك يقف شقيقان لم يلتقيا لمدة عام ويشربان ويضحكان. يدق جرس كاتدرائية القديس فنسنت عشر مرات. في ثوان، تنطفئ أضواء الشقق التي تصطف في شيفلاوبي في استجابة آلية تامة مثل استنتاجات هندسة إقليدس. عاشقان يستلقيان على ضفة النهر ينظران إلى الأعلى بكسل بعد أن استيقظا من نوم لا زمني بسبب الأصوات البعيدة لجرس الكنيسة، مندهشين من أن الليل قد خيم.

حيث يلتقي الزمنان يحل اليأس، حيث ينفصل الزمنان تحل القناعة. ذلك أن محامياً وممرضة وخبازاً يستطيعون أن يصنعوا عالماً بشكل معجز في أي من الزمنين، لكنهم لا يستطيعون ذلك في كلا الزمنين. إن كل زمن منهما حقيقي إلا أن الحقائق ليست نفسها.

٢٦ نيسان ١٩٠٥

يتّضح بسرعة في هذا العالم أن هناك شيئاً غريباً: لا تمكن رؤية منازل في الأودية والسهول. يعيش الجميع في الجبال.

في وقت ما في الماضي اكتشف العلماء أن الزمن يتدفق ببطء أكبر كلما ابتعد عن مركز الأرض. التأثير ضئيل جداً لكنه يمكن أن يقاس بأدوات حساسيتها مفرطة. حالما عُرفت الظاهرة انتقل بعض البشر المتلهفين للبقاء شباناً إلى الجبال. بُنيتْ جميع المنازل على دوم وعلى ماترهورن وجبل روزا وعلى أراض أخرى مرتفعة. من المستحيل بيع شقق سكنية في مكان آخر.

لم يرض كثيرون أن يبنوا منازلهم على جبل. لكي يحصلوا على التأثير الأكبر بنوا منازلهم على دعائم. عششت منازل كهذه على قمم الجبال في جميع أنحاء العالم، وبدتْ من بعيد كسرب طيور سمينة تقف على أرجل طويلة ونحيلة. البشر الذين يتلهفون ليعيشوا فترة أطول شيدوا منازلهم على الدعائم الأعلى. وفي الحقيقة ارتفعتْ بعض المنازل نصف ميل على سيقانها الخشبية النحيلة. أصبح الارتفاع مرتبة. حين يتوجب على شخص أن ينظر من نافذة

مطبخه إلى الأعلى ليشاهد جاراً يظن أن جاره لن يصاب بتصلب المفاصل بالسرعة التي سيُصاب هو بها، لن يفقد شعره حتى وقت لاحق، لن يُصاب بالتجاعيد حتى وقت لاحق، لن يفقد الباعث على الحبّ باكراً مثله. كذلك يميل الشخص الذي ينظر نحو الأسفل إلى منزل آخر إلى اعتبار سكانه منهكين وضعفاء وقصيري النظر. يتباهى البعض أنهم عاشوا حياتهم كلها في الأعلى، أنهم ولدوا في أعلى منزل على أعلى قمة جبل ولم يهبطوا أبداً. يحتفلون بشبابهم في المرايا ويسيرون عراة على شرفاتهم.

بين فينة وأخرى يجبر عمل ما ملح البشر على الهبوط من منازلهم فيفعلون ذلك بسرعة وينزلون بعجلة على سلالمهم إلى الأرض ويركضون إلى سلم آخر، ثم إلى الوادي في الأسفل، يكملون صفقاتهم ويعودون بأقصى سرعة إلى منازلهم أو إلى أماكن أخرى مرتفعة. يعرفون أنه مع كل خطوة إلى الأسفل تزداد سرعة مرور الزمن ويهرمون قليلاً. البشر الذين على مستوى الأرض لا يجلسون أبداً. يركضون حاملين محفظاتهم أو مشترياتهم.

لم تعد تأبه قلة من المقيمين في جميع المدن إذا تقدمت في السن بضع ثوان أكثر من جيرانها. تهبط هذه الأرواح المغامرة إلى العالم السفلي لعدة أيام في المرة الواحدة. تسترخي في ظل الأشجار التي تنمو في الوادي، تسبح بمتعة وحرية في البحيرات التي تقع على ارتفاعات دافئة، تطوف على مستوى الأرض.

نادراً ما تنظر إلى ساعاتها ولا تستطيع أن تقول إن كان اليوم هو الاثنين أو الخميس. حين يندفع الآخرون قربها بسرعة ويسخرون، تبتسم فقط.

مع مرور الزمن، ينسى البشر لماذا المكان الأعلى هو الأفضل. مع ذلك، يواصلون العيش على الجبال ليتجنبوا المناطق المنخفضة قدر استطاعتهم، ليعلموا أبناءهم أن يصرفوا الأطفال الآخرين عن الارتفاعات المنخفضة. يتعودون على برد الجبال ويستمتعون بعدم الراحة كجزء من تربيتهم، حتى أنهم أقنعوا أنفسهم بأن الهواء الرقيق مفيد لأجسادهم، ومتبعين ذلك المنطق مارسوا حميات من أجل التوفير ورفضوا كل شيء إلا القليل من الطعام. ومع مرور الوقت، أصبح البشر رقيقين كالهواء، عجافاً وكهولاً قبل أوانهم.

٢٨ نيسان ١٩٠٥

ليس بوسع المرء أن يتنزه في جادة أو يتحدث مع صديق أو يدخل بناء أو يتجول تحت أقواس رواق مقنطر قديم مصنوعة من الحجر الرملي دون أن يلتقي بأداة زمنية. فالزمن مرئي في جميع الأمكنة. أبراج الساعات الكبيرة، ساعات اليد وأجراس الكنائس تقسم الأعوام إلى شهور والشهور إلى أيام والأيام إلى ساعات والساعات إلى ثوان وكل زيادة في الوقت تتقدم بعد الأخرى في تعاقب تام. ووراء أية ساعة كبيرة معينة ثمة منصة زمنية شاسعة ترسي قانون الزمن للجميع على السواء.

في هذا العالم الثانية هي ثانية هي ثانية. يخطو الزمن إلى الأمام بانتظام مضبوط وبالسرعة المنتظمة ذاتها في جميع زوايا المكان، الزمن حاكم لا نهائي. الزمن مطلق.

يجتمع كلّ أصيل سكان بلدة بيرن في الطرف الغربي لشارع كرام. هناك في الثالثة إلا ربعاً يدفع برجُ تسوتغلوكاتورم الجزية للزمن. عالياً على البرج يرقص المهرجون، تصيح الديكة، تعزف الدببة على الناي وتقرَع الطبل، يوقّت الأصوات والحركات دوران

المسننات، التي بدورها، يلهمها اكتمال الزمن. في الساعة الثالثة تماماً يدق جرس ضخم ثلاث مرات، يتفحص البشر ساعاتهم، ثم يعودون إلى مكاتبهم في شارع شبايشا وحوانيتهم في السوق ومزارعهم التي تقع وراء الجسور التي على نهر آري.

إنّ الذين يمتلكون إيماناً دينياً يعدّون الزمن دليلاً على وجود الله. ذلك أنه من الأكيد أن لا شيء يُخلق تاماً دون خالق. لا شيء يمكن أن يكون كونياً دون أن يكون مقدساً. إنّ جميع المطلقات هي جزء من المطلق الواحد. وأينما وُجدت المطلقات يوجد الزمن. وضع فلاسفة الأخلاق الزمن في مركز إيمانهم. إنّ الزمن هو المرجع الذي يُحكم من خلاله على جميع الأفعال. إن الزمن هو المعيار للتمييز بين الصواب والخطأ.

في حانوت لبيع الكتّان في شارع أمتهاوس تتحدث امرأة مع صديقتها. فقدت وظيفتها للتو. اشتغلت عشرين عاماً موظفة في البرلمان تسجل المجادلات. ساعدت أسرتها. وسُرِّحت الآن وهي تعيل فتاة ما تزال في المدرسة وتعيش مع زوجٍ يمضي كل صباح ساعتين في المرحاض. دخلت مديرتها في صباح أحد الأيام، وهي سيدة غريبة الأطوار، مزّينة بإفراط، وطلبت منها أن تخلي مكتبها في اليوم التالي. تصغي الصديقة التي في الحانوت بهدوء وتطوي بأناقة غطاء الطاولة الذي اشترته، تنزع نسالة الكتان عن كنزة المرأة التي فقدت وظيفتها. تتفق الصديقتان على اللقاء لتناول الشاي في

الساعة العاشرة من اليوم التالي. الساعة العاشرة، بعد سبع عشرة ساعة وخمس وثلاثين دقيقة من هذه اللحظة. تبتسم المرأة التي فقدت وظيفتها للمرة الأولى طوال أيام، تتخيل في ذهنها الساعة التي على حائط مطبخها تحدد كل ثانية بين الآن والساعة العاشرة غداً، دون انقطاع، دون استشارة. وثمة ساعة مشابهة في منزل صديقتها متزامنة معها. غداً، في العاشرة إلا ثلثاً، سترتدي المرأة لفاعها وقفازيها ومعطفها وتسير في شيفلاوبي عابرة جسر نيديك متوجهة إلى المقهى في شارع بوست. في العاشرة إلا ربعاً، ستغادر صديقتها منزلها في شارع تسويغاهوس وتشق طريقها إلى المكان نفسه.

ستتقابلان في الساعة العاشرة. ستلتقيان في العاشرة.

إن عالماً يكون فيه الزمن مطلقاً هو عالم عزاء. ذلك أنه حين تكون حركات البشر غير قابلة للرصد، تكون حركة الزمن قابلة لذلك. وبينما يمكن أن يُشك بالبشر، لا يمكن الشك بالزمن. وبينما يشرد البشر ينزلق الزمن إلى الأمام دون أن ينظر إلى الخلف. في المقاهي، في الأبنية الحكومية، في القوارب التي في بحيرة جنيف، ينظر البشر إلى ساعاتهم اليدوية ويلوذون بالزمن. تعرف جميع النساء أنه في مكان ما تكون مسجلة لحظة ولادتهنّ واللحظة التي قمْنَ فيها بالخطوة الأولى، ولحظة هواهنّ الأول واللحظة التي ودعْن فيها آباءهن وأمهاتهنّ.

٣ أيار ١٩٠٥

تخيّل عالماً تحكم فيه العشوائية السبب والنتيجة. تارة يسبق السبب النتيجة وطوراً تأتي النتيجة قبل السبب، أو ربما يكمن السبب دائماً في الماضي بينما تكمن النتيجة في المستقبل، ويتشابك الماضي والمستقبل.

تطل مصطبة بندستراس على منظر مدهش: نهر آري في الأسفل وجبال الألب في الأعلى. يقف هناك رجل في هذه اللحظة، يفرغ، سارح الذهن، جيبيه ويبكي. تخلى عنه أصدقاؤه دون سبب. لم يعد يتصل به أحد، لا أحد يقابله على العشاء أو لشرب البيرة في الحانة، لا أحد يدعوه إلى منزله. كان طول عشرين عاماً الصديق المثالي لأصدقائه. كان كريماً ومهتماً ولبقاً ومتعاطفاً. ما الذي حدث؟ بعد أسبوع من هذه اللحظة يتصرف الرجل نفسه على المصطبة بطريقة سخيفة، يهين الجميع، يرتدي ثياباً تفوح منها الروائح، يبخل بماله، لا يسمح لأحد بالمجيء إلى شقته في لوبنستراس. ما الذي كان السبب وما الذي كان النتيجة؟ أيهما الماضي وأيهما المستقبل؟

صادق البرلمان في زيوريخ مؤخراً على قوانين صارمة. يجب ألا تباع المسدسات للعامة. يجب أن تُفتش البنوك والمتاجر بحثاً عن المهربات. يجب أن يُفتش جميع الزوار سواء الذين يدخلون زيوريخ بالزورق عبر نهر ليمات أو بالقطار على خط سيلينو بحثاً عن البضائع المهربة. تمت مضاعفة عدد أفراد الشرطة المدنية. بعد شهر من تشديد الإجراءات حدثت أسوأ الجرائم في تاريخ زيوريخ. قُتل البشر في وضح النهار في الوينبلاتز، سرقت اللوحات من متحف كنست، شرب الكحول على مقاعد منسترهوف. أليست هذه الأفعال الإجرامية موضوعة في غير موضعها في الزمن؟ أو ربما كانت القوانين الجديدة فعلاً لا رد فعل؟

تجلس امرأة شابة قرب نافورة في بوتانشرغارتن، تجِئ إلى هنا كل أحد لتستنشق أريج البنفسج، وردة المسك، أزهار العصيفرة القرنفلية الملتفة.

فجأة يحلق قلبها، تحمر خجلاً، تخطو بلهفة، تصبح سعيدة دون سبب. بعد أيام تقابل شاباً وتقع في الحب. أليس الحدثان متصلين؟ لكن وفق أي اتصال غريب، وفق أي اعوجاج في الزمن، وفق أي منطق معكوس؟

في هذا العالم اللا سببي، العلماء عاجزون. تصبح تنبؤاتهم لَغْواً، ومعادلاتهم تبريرات، ومنطقهم لا منطقاً. يصبح العلماء متهورين ويغمغمون مثل مقامرين لا يستطيعون التوقف عن

المراهنة. إنّ العلماء مهرجون ليس لأنهم عقلانيون، بل لأن الكون غير عقلاني، أو ربما ليس لأن الكون غير عقلاني بل لأنهم عقلانيون. من الذي يستطيع أن يحذر في عالم لا سببي؟

إنّ الفنانين فرحون في هذا العالم. فالغموض هو حياة لوحاتهم وموسيقاهم ورواياتهم. يستمتعون بأحداث لم تُكتنه بعد، بحوادث غير مشروحة، باستعادة الماضي.

تعلم معظم البشر كيف يعيشون في اللحظة. ويحتدم الجدل حول أنه إذا أحدث الماضي تأثيراً غير مؤكد في المستقبل فإن الأعمال الحالية يجب ألا تقدر أهميتها من أجل نتيجتها. بالأحرى، إنّ كلَّ فعل هو جزيرة في الزمن، ويجب أن يُحكم عليه بذاته. تواسي عائلة عمّاً يحتضرُ ليس بسبب الميراث، بل لأنه محبوب في تلك اللحظة. يتم استئجار الموظفين ليس بسبب مجمل أعمالهم ولكن بسبب حسهم الجيد في المقابلات. الموظفون الذين يدوسهم مدراؤهم يردون عند كل إهانة دون خوف على مستقبلهم. إنه عالم اندفاع، عالم إخلاص، عالم تتحدث فيه الكلمة المنطوقة مع هذه اللحظة فقط، تمتلك كل نظرة معنى واحداً فقط، لا تملك كل لمسةٍ ماضياً أو مستقبلاً، كل قبلة هي قبلة مباشرة.

٤ أيار ١٩٠٥

إنه المساء. يجلس أربعة من الإنكليز والسويسريين إلى طاولتهم المألوفة في غرفة الطعام في فندق سان موريزان في سينت موريتز. يلتقون هنا كل عام في شهر حزيران، ليتحدثوا ويستحموا. الرجلان أنيقان يرتديان ربطتي عنق سوداوين وحزامين، المرأتان جميلتان وترتديان فستاني سهرة. يسير النادل عابراً الأرضية الخشبية الرائعة ويتلقى طلباتهم.

تقول المرأة التي تزين شعرها بشريطة قماش موشّى: «أظن أن الطقس سيكون معتدلاً غداً. سيكون هذا مريحاً».

يهز الآخرون رؤوسهم وتتابع كلامها: «تبدو الحمامات أكثر إمتاعاً حين يكون الجو مشمساً. رغم أن هذا يجب ألا يهم كما أعتقد».

يقول الأميرال: «فاز (رُننيك لايتلي)[١] بأربع نقاط مقابل نقطة واحدة في دبلن».

---

(١) اسم حصان.

يغمز زوجته.

يقول الرجل الآخر: «سأراهن بخمس نقاط مقابل واحدة إذا راهنت».

تقطع النساء أرغفة العشاء، تدهنها بالزبدة وتضع السكاكين على طرف صحون الزبدة. يثبت الرجال أعينهم على المدخل.

تقول المرأة التي تزين شعرها بشريطة قماشية موشاة:

«أحب نسيج أغطية الطاولات». تأخذ منديلها تفتحه ثم تطويه مرة أخرى.

تقول المرأة الأخرى مبتسمة: «أنت ترددين هذا كل عام يا جوزفين».

يأتي العشاء. طلبوا الليلة سرطانات البحر، الهليون، شرائح لحم البقر والنبيذ الأبيض.

تقول المرأة التي تزين شعرها بشريطة قماشية موشاة وهي تنظر إلى زوجها:

«كيف هو طبقك؟».

«زيادة قليلة في البهارات كالأسبوع الماضي».

«وأنت أيها الأميرال كيف شرائحك؟»

يقول الأميرال بسعادة: «لم يقلبوا أبداً جانباً من الشرائح».

يقول الرجل الآخر: «ألم تلاحظ أنك ذهبت كثيراً إلى مخزن

اللحوم. لم تنقص كيلوغراماً واحداً منذ العام الماضي أو ربما في الأعوام العشرة الأخيرة».

يقول الأميرال غامزاً زوجته: «ربما لا تستطيع أن تلاحظ، بيد أنها تستطيع».

تقول زوجة الأميرال: «يمكن أن أكون مخطئة، لكن يبدو أن الغرف أكثر تعرضاً للهواء البارد هذا العام».

يهز الآخرون رؤوسهم ويتابعون تناول سرطانات البحر وشرائح لحم البقر. تتابع كلامها: «دائماً أنام بشكل أفضل في الغرف الدافئة لكن إذا كانت معرضة للهواء البارد أستيقظ مصابة بالسعال».

تقول المرأة الأخرى: «ضعي الغطاء فوق رأسك».

تقول زوجة الأميرال نعم لكنها تبدو محتارة.

تكرر المرأة الأخرى: «ضعي رأسك تحت الشرشف عندئذ لا يزعجك الهواء البارد. يحدث هذا لي طول الوقت في كريندلوالد. ثمة نافذة قرب سريري. أستطيع أن أتركها مفتوحة إذا غطيت أنفي. وهذا يترك الهواء البارد في الخارج».

تتحرك المرأة التي تزين شعرها بشريطة موشاة على كرسيها، تنزل ساقاً عن أخرى تحت الطاولة.

تأتي القهوة. يذهب الرجلان إلى غرفة التدخين والمرأتان إلى الأراجيح على السطح الكبير في الخارج.

يسأل الأميرال: «كيف حال المشاريع منذ العام الماضي؟»

يقول الرجل الآخر وهو يحتسي البراندي: «لا تستطيع أن تشكو».

«والأولاد؟».

«كبروا عاماً».

في الرواق، تتأرجح المرأتان وتنظران في الليل. ويحدث الشيء نفسه في جميع الفنادق والمنازل والبلدات، ذلك أن الزمن يمر لكن لا يحدث سوى القليل في هذا العالم. وتماماً كما يحدث القليل من عام لآخر يحدث القليل من شهر لآخر ومن يوم لآخر. وإذا كان الزمن ومرور الأحداث هما الشيء نفسه فهذا يعني أن الزمن لا يكاد يمر مطلقاً. وإذا لم يكن الزمن ومرور الأحداث هما الشيء نفسه، فهذا يعني أن البشر هم الذين لا يكادون يتحركون.

إذا لم يمتلك المرء طموحات في هذا العالم فإنه يعاني دون أن يعرف. وإذا امتلك المرء طموحات فإنه يعاني وهو يعرف، ولكن ببطء شديد.

فاصلة

يسير آينشتاين وبيسو ببطء في وقت متأخر من الأصيل. إنه وقت هادئ من أوقات النهار. البقالون ينزلون ظلات حوانيتهم ويخرجون دراجاتهم. تنادي أم ابنتها من شرفة طابق ثان لتجيء إلى المنزل وتحضّر العشاء.

كان آينشتاين يشرح لصديقه «بيسو» لماذا يريد أن يعرف الزمن. لكنه لا يقول شيئاً عن أحلامه. سيصلان حالاً إلى منزل بيسو. أحياناً يبقى آينشتاين هناك لتناول العشاء فيتوجب عندئذ على ميليفا أن تأتي لتعدّه حاملة رضيعهما. يحدث هذا عادة حين يكون آينشتاين مهووساً بمشروع جديد كما هو الآن وطول العشاء ينتر رجليه تحت الطاولة.

ليس آينشتاين رفيق عشاء جيداً.

ينحني آينشتاين باتجاه بيسو الذي هو قصير أيضاً ويقول: «أريد أن أفهم الزمن لأقترب من الواحد القديم». يهز بيسو رأسه. لكن ثمة مشاكل يشير إليها بيسو. ليس الواحد القديم مهتماً بالاقتراب من مخلوقاته سواء كانت ذكية أم لا. والمشكلة الأخرى هي أن هذا

المشروع الزمني يمكن أن يكون كبيراً جداً على شخص يبلغ ٢٦ عاماً من العمر.

من ناحية أخرى، يعتقد بيسو أن صديقه يمكن أن يكون قادراً على أي شيء. ذلك أن آينشتاين أكمل خلال هذا العام أطروحته في الدكتوراه، أنهى بحثاً عن الفوتونات وآخر عن الحركة البراونية. وقد بدأ هذا المشروع الحالي بالفعل كاستقصاء للكهرباء والمغناطيسية ويتطلب كما أعلن آينشتاين فجأة في أحد الأيام إعادة فهم للزمن. بيسو محتار من طموح آينشتاين.

يترك بيسو آينشتاين وحيداً مع أفكاره لوهلة. يتساءل ما الذي طبخته آنا للعشاء وينظر عبر شارع جانبي إلى قارب فضي يلمع في نهر آري تحت شمس منخفضة. وبينما يسير الرجلان يُسمع وقع خطواتهما خفيفاً على الحجر الإسفلتي. تصادقا منذ أيام الدراسة في زيوريخ.

قال بيسو: «وصلتني رسالة من أخي الذي في روما. سيأتي لزيارتي لمدة شهر. تحبه آنا لأنه يطري شخصيتها دائماً».

يبتسم آينشتاين شارد الذهن.

«لن أتمكن من مشاهدتك بعد العمل حين يأتي أخي. هل ستكون على ما يرام؟».

يسأله آينشتاين: «ماذا؟»

يكرر بيسو: «لن أقدر على رؤيتك كثيراً حين يجئ أخي. هل ستكون بخير وحدك؟»

يجيبه آينشتاين: «أكيد، لا تقلق».

كان آينشتاين يعتمد على نفسه منذ أن تعرف إليه بيسو. كانت عائلته تنتقل حين كان طفلاً. إنه متزوج مثل بيسو لكنه نادراً ما يذهب إلى أي مكان مع زوجته، حتى في المنزل يهرب من ميليفا في منتصف الليل ويدخل المطبخ ليدرس صفحات طويلة من المعادلات التي يريها في المكتب لبيسو في اليوم التالي.

يتفحص بيسو صديقه بفضول.

بالنسبة لشخص منطو على نفسه ومنعزل، يبدو ذلك الولع بالقرب غريباً.

٩ أيار ١٩٠٥

سينتهي العالم في ٢٦ أيلول ١٩٠٧. الجميع يعرفون هذا. وما يجري في بيرن يجري في جميع المدن والبلدات. قبل عام من النهاية تغلق المدارس أبوابها. لماذا الدراسة من أجل المستقبل حين يكون المستقبل قصيراً؟ يلعب الأطفال لعبة الغميضة في أروقة شارع كرام مسرورين من انتهاء الدروس إلى الأبد. يركضون في أرستراس ويرمون أحجاراً في النهر ويصرفون نقودهم لشراء النعناع المفلفل وعرق السوس. يسمح لهم أولياء أمورهم أن يفعلوا أي شيء يرغبون به.

قبل شهر من النهاية تتوقف المشاريع. يوقف البرلمان إجراءاته. يصمت بناء التلغراف الفيدرالي في شارع شبايشا وأيضاً معمل الساعات في لوبنستراسي والطاحونة التي وراء جسر نيديك. ما الحاجة إلى التجارة والصناعة حين لا يبقى سوى القليل من الزمن؟

يجلس البشر في المقاهي الرصيفية التي في شارع أمتهاوس، يحتسون القهوة ويتحدثون بارتياح عن حيواتهم. التحرر يملأ الجو. في هذه اللحظة تتحدث امرأة عيناها بنيتان مع أمها حول الوقت

القصير الذي أمضياه معاً حين كانت الأم تعمل خياطة. تخطط الأم وابنتها للقيام برحلة إلى لوسيرن. سوف يصلحان حياتين فيما تبقى من وقت. على طاولة أخرى يخبر رجل صديقه عن مشرف مكروه غالباً ما مارس الجنس مع زوجته بعد ساعات العمل في غرفة الملابس التابعة للمكتب وهدد بتسريحه إذا سبب هو أو زوجته أية مشكلة. لكن ما الذي يخيف الآن؟

رتب الرجل أموره مع المشرف وتصالح مع زوجته، وبعد أن ارتاح من ذلك مدد رجليه وطاف بعينيه فوق جبال الألب.

في المخبز الذي يقع في السوق يضع الخباز ذو الأصبع السميكة العجين في الفرن ويغني. في هذه الأيام يطلب الناس خبزهم بتهذيب. يبتسمون ويدفعون بسرعة لأن النقود تفقد قيمتها. يثرثرون حول نزهات تمت في فرايبورغ، عن وقت قضوه في الإصغاء إلى قصص أولادهم، عن نزهات طويلة في منتصف بعد الظهر. لا يبدو أنهم يكترثون بأن العالم سينتهي حالاً لأن الجميع يتقاسمون القدر نفسه. إن عالماً سينتهي بعد شهر هو عالم مساواة.

قبل يوم واحد من النهاية، تضج الشوارع بالضحك. الجيران الذين لم يتحدثوا أبداً مع بعضهم يتبادلون التحية كأصدقاء، يتعرّون ويستحمون في النافورة. آخرون يغوصون في نهر آري، وبعد أن يسبحوا إلى حد الإعياء يستلقون على العشب الكثيف على طول النهر ويقرأون الشعر. محام وموظف بريد لم يلتقيا أبداً من قبل

يشبكان ذراعيهما ويسيران عبر بوتانشرغارتن، يبتسمان لنبات قرن الغزال ونبات النجمية ويناقشان الفن واللون. ماذا تعني محطاتهما الماضية؟ في عالمٍ سينتهي بعد يوم واحد هما متساويان.

في ظلال شارع جانبي بعيد عن نهر آري، يستند رجل وامرأة إلى حائط، يشربان البيرة ويأكلان لحم البقر المجفف. فيما بعد، ستأخذه إلى شقتها. إنها متزوجة من شخص آخر لكنها أرادت هذا الرجل طول سنوات وسوف تلبي رغباتها في هذا اليوم الأخير من نهاية العالم.

تعدو بعض الأرواح في الشوارع وتقوم بأفعال خيِّرة لتصحح أفعالها الشريرة التي ارتكبتها في الماضي. وكانت ابتساماتها هي الابتسامات الوحيدة الشاذة.

قبل دقيقة من نهاية العالم يجتمع الجميع في أراضي متحف كنسنت. يشكل الرجال والنساء والأولاد دائرة عملاقة ويمسكون أيدي بعضهم بعضاً. لا يتحرك أو يتحدث أحد. يخيم صمت مطبق بحيث يستطيع أيّ شخص أن يسمع نبض قلب الذي يقف على يمينه أو يساره. هذه هي الدقيقة الأخيرة في حياة العالم. في الصمت المطلق تلتقط نبتة كف ذئب أرجوانية الضوء على الجانب الأسفل من أزهارها، تتوهج للحظة ثم تتلاشى بين الأزهار الأخرى. خلف المتحف ترتجف الأوراق الإبرية للشربين بنعومة حين يتحرك النسيم عبر الأشجار. وبعيداً إلى الخلف، عبر الغابة،

يعكس نهر آري ضوء الشمس، يلتوي الضوء مع كل تجعيدة في سطحه. إلى الشرق، ينهض برج كاتدرائية القديس فنسنت أحمر وهشاً، بناؤه الحجري رقيق كشرايين ورقة. وفي الأعلى تبدو جبال الألب المكللة بالثلوج والتي تجمع بين الأبيض والأرجواني ضخمة وصامتة. تطوف غيمة في السماء. لا أحد يتحدث.

يبدو في الثواني الأخيرة كأن الجميع قفزوا عن قمة توباز متشابكي الأيدي. تقترب النهاية كأرض مقتربة. يهب الهواء البارد، تفقد الأجسام أوزانها. يتثاءب الأفق الصامت أميالاً. وفي الأسفل، يندفع غطاء الثلج الشاسع مقترباً ليغطي تلك الدائرة من اللون القرنفلي والحياة.

١٠ أيار ١٩٠٥

الوقت أواخر بعد الظهر. تعشش الشمس لحظة قصيرة في تجاويف جبال الألب الثلجية. تندفع أشعة الضوء المائلة والطويلة من الجبال عابرة بحيرة هادئة وترمي ظلالها على بلدة تقع في الأسفل.

تتألف البلدة من قطعة واحدة وقطع كثيرة. تشكل أشجار التنوب والشربين وصنوبر الآرولا حداً من جهة الشمال والغرب، بينما توجد في الأعلى الزنابق، كف الذئب وحشيشة الأسد الألبية. في المراعي التي قرب البلدة يرعى القطيع من أجل صناعة الزبدة والجبنة والشوكولاتة. تنتج طاحونة نسيج صغيرة الخيوط الحريرية والشرائط والملابس القطنية. يرن جرس كنيسة. تملأ رائحة لحم البقر المجفف الشوارع والأزقة.

تُظهر نظرة متفحصة أنها مدينة من قطع كثيرة. تعيش إحدى الحارات في القرن الخامس عشر. هنا، ينضم إلى المنازل الطابقية المبنية من الحجر الخشن سلالم وشرفات خارجية، بينما تفغر الجملونات العليا أفواهها وتنفتح للريح. تنمو الطحالب بين قطع

أحجار السقوف. يبدو قسم آخر من القرية كصورة من القرن الثامن عشر. يتدلى القرميد الأحمر المحروق معلقاً على السقوف المستقيمة. تظهر كنيسة بنوافذ بيضوية الشكل، إيوانات مرصوفة ومسقوفة وتصوينات غرانيتية. يمسك قسم آخر بالحاضر، برواقات مقنطرة تنتظم في جميع الجادات، درابزونات معدنية على الشرفات، واجهات مصنوعة من الحجر الرملي الناعم.

كل قسم من القرية مثبت إلى زمن مختلف.

في نهاية بعد الظهر، في هذه اللحظات القليلة بينما الشمس تعشش في التجويف الثلجي الألبي، يستطيع المرء أن يجلس قرب البحيرة ويتأمل نسيج الزمن. فرضياً، يمكن أن يكون الزمن ناعماً أو خشناً، شوكياً أو حريرياً، صلباً أو ليناً، لكن في هذا العالم يحدث أن يكون نسيج الزمن لاصقاً. تعلق مجموعة من البلدات في لحظة ما من التاريخ ولا تخرج. وهكذا أيضاً يعلق الأفراد في نقطة ما من حياتهم ولا يتحررون.

في هذه اللحظة، يتحدث رجل في أحد المنازل التي تقع أسفل الجبل مع صديق. يتحدث عن أيام دراسته في المدرسة الثانوية. تتدلى شهادات الامتياز التي حصل عليها في الرياضيات والتاريخ على الجدران، تشغل ميدالياته الرياضية وغنائمه رفوف الكتب. على طاولة، صورة له حين كان كابتن فريق التسييج يعانقه فيها شبان آخرون ذهبوا منذ ذلك الوقت إلى الجامعة وأصبحوا مهندسين

ومصرفيين وتزوجوا. في الخزانة ثيابه التي تعود إلى عشرين عاماً، بلوزة التسييج، بنطال التويد الضيق على خصره الآن. الصديق الذي كان يحاول طوال أعوام أن يعرِّف الرجل على أشخاص آخرين يهز رأسه بكياسة ويصارع بصمت ليتنفس في الغرفة الصغيرة.

في منزل آخر، يجلس رجل إلى طاولته وحيداً وهي مجهزة لاثنين. منذ عشرة أعوام جلس هنا مقابل والده ولم يقدر أن يقول إنه يحبه، بحث أثناء أعوام طفولته عن لحظة صلة، تذكر المساءات التي جلس فيها ذلك الرجل الصامت مع كتابه، كان غير قادر أن يقول إنه أحبه، لم يقدر أن يقول إنه أحبه. على الطاولة صحنان، كأسان، شوكتان، كما كان الأمر في تلك الليلة الماضية. يبدأ الرجل تناول الطعام، لا يستطيع أن يأكل، يبكي غير قادر أن يسيطر على نفسه. لم يقل أبداً إنه أحبه.

في منزل آخر تنظر امرأة بولع إلى صورة ولدها الشاب المبتسم والمتألق. تكتب له رسالة إلى عنوان طويل مضلل، تتخيل الرسائل السعيدة التي ستتلقاها. حين يقرع ابنها الباب، لا تفتحه. حين يأتي ولدها بوجهه اللاهث وعينيه الزجاجيتين إلى نافذتها ويطلب النقود لا تسمعه. حين يترك لها ولدها ذو المشية المتعثرة رسائل متوسلاً أن يشاهدها ترمي الرسائل دون أن تفتحها. حين يقف ولدها في الليل خارج منزلها تنام باكراً. في الصباح تنظر إلى صورته، تكتب رسائل عبادة إلى عنوان مضلل طويل.

تشاهد عانس وجه الشاب الذي أحبها في مرآة غرفة نومها، على سقف المخبز، على سطح البحيرة، في السماء.

إن مأساة هذا العالم هي أنه لا يوجد أي شخص سعيد سواء كان عالقاً في زمن ألـمٍ أو متعة. إن مأساة هذا العالم هي أن كل شخص هو وحيد لأنَّ حياة في الماضي لا يمكن أن تُعاش في الحاضر. إن كلّ من يعلق في الزمن يعلق وحيداً.

١١ أيار ١٩٠٥

حين يسير المرء في السوق يرى منظراً عجيباً: الكرز الذي في أكشاك بيع الفاكهة مرتب في صفوف، القبعات التي في المتجر مجموعة بأناقة، الأزهار التي على الشرفات مرتبة في تناسق تام. لا فُتات على أرض المخبز، لا حليب مسفوحاً على أرضية بيت المؤن، لا شيء خارج موضعه.

حين تنتهي حفلة مرحة في مطعم تصبح الطاولات أكثر ترتيباً مما كانت عليه. حين تهب ريح خفيفة عبر الشارع، يكنس الشارع ويصبح نظيفاً وتُنقَل الأوساخ والغبار إلى حافة البلدة. حين تتكسَّر أمواج على الشاطئ، يعيد الشاطئ بناء نفسه. حين تسقط الأوراق عن الأشجار، تصطف الأوراق كالطيور في تشكيل كحرف V. حين تشكل الغيوم وجوهاً، تبقى الوجوه. حين ينفث غليون الدخان في غرفة يندفع السخام نحو زاوية الغرفة تاركاً جواً خالياً. تصبح الشرفات المطلية المعرضة للريح والمطر أكثر تألقاً مع مرور الزمن. يجعل صوت الرعد أصيصاً مكسوراً يعيد تكوين نفسه، يجعل

الشظايا المحطمة تقفز إلى أماكنها المحددة حيث تتلاءم وتلتحم. يزداد الأريج الفواح لعربة قرفة عابرة ولا يتلاشى مع مرور الزمن.

هل تبدو هذه الحوادث غريبة؟

يسبب مرور الزمن في هذا العالم ازدياداً في النظام. إنّ النظام هو قانون الطبيعة، الميل العالمي، الجهة الكونية. إذا كان الزمن سهماً، يشير السهم نحو النظام. المستقبل نموذج، منظمة، اتحاد، توتير. الماضي عشوائية، فوضى، تحلل، تلاشٍ.

يرى الفلاسفة أنه بدون اتجاه نحو النظام يفقد الزمن معناه. يصبح الزمن غير قابل للتمييز عن الماضي. يصير تعاقب الأحداث مشاهد عشوائية من ألف رواية.

يصبح التاريخ غير قابل للتمييز مثل الضباب الذي تجمعه ببطء قمم الأشجار في المساء.

في عالم كهذا يستلقي البشر الذين يعيشون في منازل غير مرتبة في أسرتهم وينتظرون أن تنفض قوى الطبيعة الغبار عن أسكفات نوافذهم وترتب الأحذية في خزائنهم. البشر الذين يعيشون علاقات غير منظمة يمكن أن يقوموا بنزهات بينما تصبح تقاويمهم منظمة، مواعيدهم مرتبة وأرصدتهم متوازنة. يمكن أن توضع الفرشاة، وأحمر الشفاه والرسائل في المحفظات بإهمال مع وجود قناعة أنها سترتب نفسها آلياً. ولن تحتاج الحدائق إلى أن تُشذَّب والأعشاب إلى أن تُستأصل. تصبح المكاتب أنيقة في نهاية اليوم. الثياب التي

على الأرض في المساء تتوضع على الكراسي في الصباح. الجرابات المفقودة تعاود الظهور.

إذا زار المرء مدينة في الربيع يرى منظراً عجباً آخر. ذلك أن البشر يمرضون في الربيع من نظام حياتهم. يدمر البشر في الربيع منازلهم بغضب، يتحركون بين الأوساخ، يحطمون الكراسي، يكسرون النوافذ. في شارع آربر أو أية جادة سكنية يسمع المرء في الربيع أصوات الزجاج المحطم والصراخ والعويل والضحك. في الربيع يلتقي البشر في أوقات غير منظمة، يحرقون كتب مواعيدهم، يقذفون ساعات يدهم بعيداً، يشربون طول الليل. يستمر هذا الوضع الهستيري إلى الصيف حين يستعيد البشر أحاسيسهم ويعودون إلى النظام.

١٤ أيار ١٩٠٥

ثمة مكان يتوقف فيه الزمن. تتدلى قطرات المطر دون حراك في الجو. تتجمد رقاصات الساعات في منتصف التأرجح. ترفع الكلاب خطومها في عواء صامت. يتجمد العابرون في الشوارع الغبارية وأرجلهم مرفوعة نحو الأعلى كأنها مشدودة بخيوط. تعلق روائح البلح والمانغا والكزبرة والكمّون في الفضاء.

حين يقترب مسافرٌ إلى هذا المكان من أية جهة، يتحرك ببطء متزايد. يزداد تباعد دقات قلبه، يضعف نَفَسُهُ، تنخفض حرارته، تبهت أفكاره إلى أن يصل إلى حالة الموت ويتوقّف. ذلك أن هذا هو مركز الزمن. من هذا المكان يتحرك الزمن نحو الخارج في دوائر متحدة المركز. يكون مستقراً في المركز، يجمع السرعة ببطء في أقطار دوائر أكبر. من الذي سيحجُّ إلى مركز الزمن؟ الآباء والأمهات مع أولادهم والعشاق.

وهكذا، في المكان الذي يتوقف فيه الزمن، يرى المرء الآباء والأمهات يتشبّثون بأولادهم في عناق متجمد لن يتحرر أبداً. لن تتوقف الابنة الشابة الجميلة ذات العينين الزرقاوين والشعر الأشقر

عن تلك الابتسامة التي تبتسمها، لن تفقد توهج خديها القرنفلي الناعم، لن تنالها التجاعيد أو التعب، لن تُصاب بالأذى، لن تنسى ما علمها والدها، لن تعرف الشر أبداً، لن تقول لوالديها أبداً إنها لا تحبهما، لن تغادر أبداً غرفتها المطلة على البحر، لن تتوقف أبداً عن لمس والديها كما تفعل الآن.

وفي المكان الذي يتوقف فيه الزمن يشاهد المرء العشاق يتبادلون القبل في ظلال المباني في عناقات متجمدة لن تنفك أبداً. لن يزيح المعشوق ذراعيه عن موقعهما لن يعيد سوار الذكريات، لن يسافر بعيداً عن معشوقته، لن يخاطر بنفسه في التضحية الذاتية، لن يفشل في إظهار حبه، لن يغار أبداً، لن يقع في حب امرأة أخرى، لن يفقد أبداً هوى هذه اللحظة في الزمن.

يجب أن يلاحظ المرء أن تلك التماثيل مضاءة بأضعف لون أحمر لأن الضوء تلاشى في مركز الزمن وتحولت ذبذباته إلى أصداء في الأودية الواسعة وصُغِّر توتره حتى أصبح مثل التوهج الباهت للحباحب.

أولئك الذين ليسوا هادئين في مركز الزمن يتحركون فعلاً لكن بخطوات متجمدة. يمكن أن يستغرق تمشيط الشعر عاماً، يمكن أن تستغرق قبلة ألف عام. وفي الوقت الذي تُعاد فيه ابتسامة تمر الفصول في العالم الخارجي. وفي الوقت الذي يُضمُّ فيه طفل تُبنى جسور. وفي الوقت الذي يقال فيه وداعاً تتفتت مدن وتُنسى.

وأولئك الذين يعودون إلى العالم الخارجي...

ينمو الأطفال بسرعة، ينسون عناق آبائهم وأمهاتهم الذي استمر قروناً والذي، بالنسبة إليهم، استمر بضع ثوان فقط الأطفال الذين يصبحون راشدين، يعيشون بعيداً عن أمهاتهم وآبائهم في منازلهم الخاصة، يتعلمون طرقاً خاصة بهم، يعانون من الألم، يشيخون. يلعن الأطفال آباءهم وأمهاتهم لأنهم يحاولون الاحتفاظ بهم إلى الأبد، يلعنون الزمن بسبب تجاعيد جلدهم وأصواتهم الأجشة. هؤلاء الذين أصبحوا أطفالاً شائخين يريدون أن يوقفوا الزمن لكن في زمن آخر. يريدون أن يجمدوا أبناءهم في مركز الزمن.

العشاق الذين يعودون يجدون أن أصدقاءهم رحلوا منذ وقت طويل. في النهاية، انتهت فترات الحيوات. يتحركون في عالم لا يعرفونه. العشاق الذين عادوا ما يزالون يتعانقون في ظلال الأبنية الا أن عناقاتهم تبدو الآن فارغة ووحيدة. حالاً ينسون الوعود التي عمرها قرون والتي، بالنسبة لهم، استمرت بضع ثوان فقط. حتى بين الغرباء، يتبادلون كلمات نابية، يفقدون الهوى، ينفصلون، يشيخون ويصيحون وحيدين في عالم لا يعرفونه.

يقول البعض من الأفضل عدم الاقتراب من مركز الزمن. إنّ الحياة قارب حزن إلا أنه من النبل أن يعيش المرء الحياة ولكن دون زمن لا توجد حياة. لا يوافق آخرون. سيفضلون أبدية من القناعة حتى ولو كانتِ متوقفة ومتجمدة، كفراشة حبيسة في علبة.

١٥ أيار ١٩٠٥

تخيل عالماً يخلو من الزمن، ليس فيه إلا الصور.

طفلة على الشاطئ، مسحورة من رؤيتها الأولى للمحيط. امرأة واقفة على الشرفة فجراً شعرها المنسدل، ثياب نومها الفضفاضة، شفتاها. القوس المحنية للرواق المقنطر قرب نافورة تسيرغنا في شارع كرام، الحجر الرملي والحديد. يجلس رجل في مكتبه الهادئ حاملاً صورة امرأة وثمة نظرة استياء على وجهه. عقابٌ مؤطرٌ في السماء باسطٌ جناحيه، أشعة الشمس تتغلغل في ريشه. يجلس فتى يافع في صالة فارغة يخفق قلبه كأنه على خشبة المسرح. آثار أقدام على الثلج في جزيرة شتائية. قارب على المياه في الليل تبدو أضواءه باهتة في المسافة كمثل نجمة صغيرة حمراء في السماء السوداء. خزانة أدوية مغلقة. امرأة تلبد في الدغل، تنتظر قرب منزل زوجها اللامبالي الذي يجب أن تتحدث إليه. مطر خفيف في يوم ربيعي أثناء نزهة هي النزهة الأخيرة التي يقوم بها شاب في المكان الذي يحبه. غبار على أسكفة نافذة. طاولة تعرض فليفلة صفراء وخضراء وحمراء.

ماترهورن، القمة البيضاء المسننة المندفعة في السماء الزرقاء الكثيفة، الوادي الأخضر وكابينات الخشب.

ثقب إبرة. ندى على الأوراق كريستالي ومتخايف الألوان. أم تبكي في سريرها ورائحة الحبق في الجو. طفلة تركب دراجة في كلاينشانسا تبتسم ابتسامة تنتمي إلى فترة الحياة. برج صلاة طويل، ثمانيّ الأضلاع، شرفته مفتوحة، جليل ومحاط بالأذرع. بخار يتصاعد من بحيرة في صباح باكر؟ دِرَجٌ مفتوح. صديقان في مقهى، ضوء المصباح يضيء وجه أحدهما، الآخر في الظل. قطة تراقب خنفساء على النافذة. فتاة شابة على مقعد، تقرأ رسالة، دموع الفرح في عينيها الخضراوين. حقل كبير مخطط بأشجار الأرز والتنّوب. ضوء الشمس الداخل في زوايا طويلة عبر النافذة في نهاية الأصيل. شجرة كبيرة ساقطة جذورها مرتفعة في الجو، ما يزال اللحاء أخضر والأغصان أيضاً. بياض مركب شراعي، الريح خلفه، يبحر منتفخاً كجناحي طائر أبيض عملاق. أب وابن وحيدان في مطعم، الأب حزين يحدق بغطاء الطاولة، أبقار خضراء وأرجوانية في ضوء الأصيل. زجاجة محطمة على الأرض، سائلُ بنيّ في الصدوع، امرأة عيناها حمراوان. عجوز في المطبخ يعد الفطور لحفيده، الطفل يحدق عبر النافذة إلى مقعد مطلي باللون الأبيض. كتاب مهترئ على طاولة قرب مصباح باهت. البياض على المياه كموجة تتلاشى تعصف بها الريح. امرأة تستلقي على أريكتها، شعرها مبلل، تمسك يد رجل لن تراه مرة ثانية أبداً، قطار عرباته

حمراء على جسر حجري كبير أقواسه بارعة الجمال، نهر في الأسفل، نقاط صغيرة هي منازل بعيدة، ذرات الغبار تعوم في ضوء الشمس من خلال نافذة، الجلد الرقيق في منتصف عنق، رقيق بما يكفي لرؤية نبض الدم. رجل وامرأة عاريان يغطيان بعضهما بعضاً، الظلال الزرقاء للأشجار تحت البدر، قمة جبل وريح قوية منتظمة، ينكشف الوادي من جميع الجهات، سندويتشات لحم بقر وجبنة، طفلٌ ينقز من صفعة والده، شفتا الأب ملويتان من الغضب، الطفل لا يفهم، وجهٌ غريب في المرآة شائب عند الصدغين. شابٌّ يحمل هاتفاً منذهل مما يسمع، صورة عائلة، الأب والأم شابان ومسترخيان، الأولاد يرتدون ربطات العنق والفساتين ويبتسمون. ضوء بعيد باهت يبدو من خلال أجمة أشجار، اللون الأحمر عند الغروب، قشرة بيضة، هشة، غير محطمة، قبعة زرقاء مغسولة على الشاطئ. ورود مقطوعة طافية في النهر تحت الجسر وجوسق يرتفع. شعر أحمر لعاشقة، وحشيٌّ، شرير، وواعد. امرأة شابة تحمل تويجات أرجوانية. غرفة من أربعة جدران ونافذتين وسريرين وطاولة ومصباح وشخصين بوجهين حمراوين ودموع. القبلة الأولى، كواكب عالقة في الفضاء، محيطات، صمت، قطرة ماء على النافذة، حبل ملتف، فرشاة صفراء.

٢٠ أيار ١٩٠٥

إن نظرة إلى الأكشاك المزدحمة في شارع شبيتال تروي القصة. يسير البقالون بتردد من كشك إلى آخر ليكتشفوا ماذا يبيع كلُّ كشك. هنا تبغ، لكن أين بذار الخردل؟ هنا شوندر سكري لكن أين سمك البقلاي؟ هذا حليب الماعز لكن أين الساسفراس؟ ليس هؤلاء سياحاً في زيارتهم الأولى لبيرن. إنهم مواطنو بيرن. لا أحد يتذكر أنه اشترى منذ يومين شوكولاته من حانوت يدعى فرديناندز، أو لحم بقر من محل هوف للمواد الغذائية. يجب أن يُعثر على كل حانوت وما يختص به من جديد. يسير كثيرون وفق الخرائط التي ترشدهم من رواق مقنطر إلى آخر في المدينة التي عاشوا فيها طول حياتهم، في الشارع الذي تنقلوا فيه طول أعوام. يسير كثيرون حاملين الدفاتر ليسجلوا ما تعلموه بينما يمكث لوهلة في رؤوسهم. ذلك أن البشر في هذا العالم بلا ذاكرات.

حين يحين وقت العودة إلى المنزل في نهاية اليوم يستشير الجميع دفاتر عناوينهم ليعرفوا أين يعيشون. يكتشف اللحام الذي قام بتقطيع غير جيذ في اليوم الأول من عمله أن منزله يقع في

شارع نيغال. السمسار الذي أنتجت ذاكرته المحدودة عن السوق استثمارات ممتازة، يقرأ أنه يسكن في شارع بندس. حين يصل كل رجل إلى منزله يجد امرأة وأطفالاً ينتظرون عند الباب، يعرّف عن نفسه، يساعد في تحضير وجبة العشاء، يقرأ قصصاً لأطفاله. كذلك، إنّ كلّ امرأة تعود من عملها تقابل زوجاً وأطفالاً وخوانات ومصابيح وورق جدران ونماذج من الآنية. في وقت متأخر من الليل لا يبقى الزوج والزوجة إلى الطاولة ليناقشا أعمال اليوم، ومدرسة أولادهما، ورصيد البنك، بدلاً من ذلك، يبتسمان، يشعران بالدم الدافئ وبالألم بين الساقين كما كانا يفعلان حين التقيا للمرة الأولى منذ خمسة عشر عاماً. يعثران على غرفة نومهما، يتعثران وهما يعبران صوراً عائلية لا يتعرفان عليها ويمضيان الليل في الشبق. ذلك أن العادة والذاكرة تبلدان الهوى الجسدي. بدون ذاكرة، كل ليلة هي الليلة الأولى، كل صباح هو الصباح الأول، كل قبلة ولمسة تحدثان لأول مرة.

إن عالماً بدون ذاكرة هو عالم الحاضر. ينحصر وجود الماضي في الكتب والسجلات. يحمل كل شخص كتاب الحياة الخاص به من أجل أن يعرف نفسه وهذا الكتاب مليء بتاريخ حياته. يستطيع أن يتعرف على هوية والديه أو فيما إذا ولد غنياً أو فقيراً، أو إذا كان جيداً أو سيئاً في المدرسة أو إذا أنجز أي شيء في حياته. حين يقرأ صفحات الكتاب كل يوم. بدون كتاب الحياة، يصبح المرء صورة عابرة، صورة ببعدين، شبحاً. في المقاهي التي تقع تحت

الأشجار المورقة في برونغاسهالدي يسمع المرء صراخاً أليماً لرجل قرأ لتوه أنه قتل مرة رجلاً آخر وتنهيدة امرأة اكتشفت لتوها أن أميراً خطبها، تباهياً مفاجئاً من امرأة عرفت أنه جامعتها كرّمتْها منذ عشرة أعوام. يمضي البعض ساعات الغسق حول طاولاتهم وهم يقرؤون في كتب الحياة، آخرون يملأون بعصبية صفحاتها الإضافية بحوادث اليوم.

مع مرور الزمن تزداد سماكة كتاب الحياة الخاص بكل شخص بحيث لا تمكن قراءته كله. عندئذ يأتي خيارٌ: الرجال والنساء الكبار في السن يمكن أن يقرأوا الصفحات الأولى ليتعرفوا على أنفسهم كشباب، أو يمكن أن يقرأوا النهاية ليتعرفوا على أنفسهم في سنوات لاحقة.

توقف البعض عن القراءة. تخلوا عن الماضي. قرروا أنه لا يهم إذا كانوا أغنياء أم فقراء في الماضي، متعلمين أم جهلة، متكبرين أم متواضعين، عاشقين أم فارغي القلوب ـ ولا يهمهم أيضاً كيف تدخل الريح الخفيفة في شعرهم. ينظر بشر كهؤلاء إلى عينيك بشكل مباشر ويمسكون يدك بشدة. يسير بشر كهؤلاء بالخطوة الواسعة الرشيقة لشبابهم. تعلم بشر كهؤلاء كيف يعيشون في عالم بلا ذاكرة.

٢٢ أيار ١٩٠٥

في الفجر، يطوف ضباب أصفر عبر المدينة يحمله نَفَسُ النهر. تنتظر الشمس وراء جسر نيديك وتلقي أسنّتها الحمراء الطويلة على طول شارع كرام مضيئة الأجزاء السفلية للشرفات وصولاً إلى الساعة العملاقة التي تقيس الزمن. تندفع أصوات الصباح عبر الشوارع كرائحة الخبز. تستيقظ طفلة وتبكي طالبة أمها. تصدر ظلة حانوت صريراً بهدوء عندما يصل البقال إلى حانوته في السوق. تجأر آلة في النهر، تتحدث امرأتان بهمس تحت رواق مقنطر.

وحين تذوب المدينة في الضباب والليل يرى المرء مشهداً غريباً: هنا جسر قديم لم يكتمل بناؤه. هناك منزل أزيل من أسسه، هنا شارع يتجه إلى الشرق دون سبب واضح، هناك يتوضع مصرف وسط سوق البقالة. يصوّر زجاج كاتدرائية القديس فنسنت السفلي الملون مواضيع دينية وينتقل الجزء الأعلى فجأة إلى صورة جبال الألب في الربيع. يسير رجل بخفة نحو البرلمان. يتوقف فجأة، يضع يديه على رأسه، يصيح مهتاجاً، يستدير ويسرع في الجهة المعاكسة.

هذا عالم خطط متبدلة، فرص مفاجئة، رؤى غير متوقعة. ذلك أن الزمن يتدفقُ في هذا العالم بصورة متقطعة غير مستوية وبالتالي يتلقى البشر لمحات متقطعة عن المستقبل.

حين تتلقى أم رؤية مفاجئة عن مكان سكن ولدها تنقل منزلها لتصبح قربه. حين يرى بنّاء مكان التجارة المستقبلي يغير طريقه نحو ذلك الاتجاه. حين تلمح طفلة نفسها لوهلة كبائعة أزهار تقرر عدم الذهاب إلى الجامعة. حين يتلقى شاب رؤية عن المرأة التي سيتزوجها، ينتظرها. حين يبصر محام نفسه في عباءة قاض في «زوريخ» يتخلى عن عمله في بيرن. ما معنى متابعة الحاضر بعد أن يرى المرء المستقبل؟

إن هذا العالم هو عالم نجاح مضمون لأولئك الذين تلقوا رؤيتهم. إن بعض المشاريع التي بدأت لا تقود إلى مهنة. بعض الرحلات التي تمت لا تقود إلى مدينة القدر، بعض الذين تمت مصادقتهم لن يصيروا أصدقاء، في المستقبل. لقد صُنعت بعض العواطف.

أما بالنسبة للذين لم يتلقوا رؤيتهم فهذا عالم تشويق غير فعال. كيف يستطيعُ المرء أن يسجل في جامعة دون أن يعرف مهنته المستقبلية؟ كيف يفتح المرء صيدلية في «السوق» حين سيكون محل مشابه أفضل في شارع «شبيتال»؟ كيف تقدر امرأة أن تمارس الجنس مع رجل من المحتمل أن يخونها؟ ينام بشرٌ كهؤلاء معظم النهار وينتظرون مَجيء رؤيتهم.

وهكذا تقلُّ المجازفات في هذا العالم المؤلف من مشاهد قصيرة. وأولئك الذين لم يشاهدوا المستقبل بعد، ينتظرون الرؤية دون أن يجازفوا.

إنّ بعض الذين شاهدوا المستقبل يفعلون ما بوسعهم ليفنّدوه. يذهب رجلٌ ليعتني بحدائق المتحف في نيوشاتل بعد أن رأى نفسه محامياً في لوسيرون. ينطلق شاب في رحلة بحرية رائعة مع والده بعد أن رأى أن والده سيموت حالاً من أزمة قلبية. تسمح شابة لنفسها أن تقع في الغرام مع رجل ما رغم رؤيتها بأنها ستتزوج رجلاً آخر. يقف بشر كهؤلاء على شرفاتهم بعد الغروب ويصيحون أن المستقبل يمكن أن يُغيّر. أن آلاف المستقبلات ممكنة. مع مرور الزمن، يتعب حدائقي نيوشاتل من أجوره المنخفضة ويصبح محامياً في لوسيرن. يموت الأب بسبب الأزمة القلبية ويكره الابن نفسه لأنه لم يجبر والده على البقاء في الفراش. يهجر العشيق المرأة الشابة التي بدورها تتزوج رجلاً يمنحها العزلة والألم.

من الذي تجري أموره بشكل أفضل في عالم زمنه متقطع؟ أولئك الذين شاهدوا المستقبل ويعيشون حياة واحدة؟ أم أولئك الذين لم يروا المستقبل وينتظروا أن يعيشوا الحياة؟ أم أولئك الذين ينكرون المستقبل ويعيشون حياتهم؟

٢٩ أيار ١٩٠٥

إن رجلاً أو امرأة يُدفعان فجأة إلى هذا العالم يجب أن ينحرفا عن المنازل والأبنية. ذلك أن كل شيء في حالة حركة. تندفع المنازل والشقق الصاعدة على عجلات عبر ساحة باهنوفبلاتز وتسرع عبر أزقة السوق بينما يصرخ ساكنوها من نوافذ الطوابق الثانية. لا يبقى مكتب البريد في شارع بوست بل يطير عبر المدينة على سكة كالقطار. ولا يبقى مجلس الشعب متوضعاً في شارع بوندس. في جميع الأمكنة يجأر الجو ويزأر بصوت المحركات والسيارات. حين يخرج شخص من باب منزله الخارجي عند شروق الشمس يندفع راكضاً ويلحق بمكتبه. يسرع صاعداً وهابطاً الدرج. يعمل. يندفع في دوائر ويعدو نحو المنزل في نهاية اليوم. لا يجلس أحد تحت شجرة حاملاً كتاباً، لا يحدق أحد إلى التجعدات في بركة، لا يستلقي أحد على الشعب الكثيف في الريف. لا أحد ثابتاً.

لماذا ثباتٌ كهذا إبان السرعة؟ لأن الزمن في هذا العالم يمر ببطء، أكبر بالنسبة للبشر الذين في حالة حركة. هكذا يتحرك الجميع بسرعة مرتفعةٍ ليكسبوا الوقت.

لم يُلاحظ تأثير السرعة إلى أن اختُرع محرك الاحتراق الداخلي وبدأ النقل السريع. أخذ السيد راندولف ويك من سُري حماته إلى لندن بسرعة كبيرة في سيارته الجديدة في ٨ أيلول ١٨٨٩. وما أفرحه هو أنه وصل في نصف الوقت المتوقع قبل أن تبدأ المحادثة. قرر أن يفكر بالظاهرة. بعد أن نشرت أبحاثه لم يسافر أحد بعد ذلك ببطء.

بما أن الزمن نقود فإن الاعتبارات المادية وحدها تملي على جميع مكاتب السمسرة، والمراكز الصناعية والحوانيت أن تنتقل باستمرار بأقصى سرعة ممكنة لتجني فوائد أكثر من منافسيها. تُزوّد أبنية كهذه بآلات عملاقة ولا ترتاح أبداً. تزأر محركاتها ومحاور أذرعة تدويرها بصخب أكثر من الأجهزة والبشر الذين يشغلونها.

كذلك، تُباع المنازل ليس بسبب حجمها وتصميمها فحسب، بل أيضاً بسبب سرعتها. لأنه كلما ازدادت سرعة انتقال المنزل تباطأت حركة الساعات في الداخل وتوفَّر الوقت لقاطنيه. ونظراً للسرعة، يستطيع شخص في منزل سريع أن يسبق جيرانه عدة دقائق في يوم واحد. يتواصل هذا الهوس بالسرعة طول الليل حين يمكن أن يُكتسب الوقت القيم أو يُخسر أثناء النوم. في الليل تضاءُ الشوارع لكي تتجنب المنازل العابرة الاصطدام الذي غالباً ما يكون مهلكاً.

في الليل يحلم البشر بالسرعة والشباب والفرصة. في عالم السرعة الكبيرة هنا أُدركت إحدى الحقائق ببطء. استناداً إلى جميع

التفسيرات المنطقية، إنّ التأثير الحركي نسبي كله، لأنه حين يمر شخصان في الشارع يرى كل منهما الآخر في حالة حركة تماماً كما يرى امرؤ في قطار طيران الأشجار عبر نافذته. بالتالي، حين يعبر شخصان في الشارع يرى كل منهما زمن الآخر يتباطأ. يرى كل منهما الآخر يكتسب وقتاً. يسبب هذا التبادل الجنون. ومما يزيد في الجنون أنه كلما أسرع المرء في تجاوز جارٍ ظهر الجار مسرعاً.

محبطين وقانطين، يتوقف البعض عن النظر من نوافذهم. إذا كانت الستائر مسدلة لا يعرفون أبداً نسبة سرعة حركتهم ونسبة سرعة جيرانهم ومنافسيهم. ينهضون في الصباح، يستحمون، يأكلون خبراً ولحم خنزير، يشتغلون على مكاتبهم، يصغون إلى الموسيقا، يتحدثون مع أطفالهم، يعيشون حيوات قناعة ورضا.

يجادل البعض أن ساعة البرج العملاقة في شارع كرام هي وحدها التي تحتفظ بالزمن الصحيح، وهي وحدها ثابتة. يشير آخرون أنه حتى الساعة العملاقة هي في حالة حركة إذا نُظر إليها من نهر آري أو من سحابة.

فاصل

يجلس آينشتاين وبيسو ظهراً في مقهى رصيفي في شارع أمتهاوس بعد أن طلب بيسو من صديقه مغادرة المكتب لاستنشاق بعض الهواء.

يقول بيسو: «لا تبدو على ما يرام».

يهز آينشتاين كتفيه مستاءً قليلاً. تمر الدقائق أو ربما الثواني فقط.

يقول آينشتاين: «أنا أحرز تقدماً».

يقول بيسو متفحصاً بذعر الدوائر السوداء تحت عيني صديقه: «هذا واضح».

من المحتمل أيضاً أن آينشتاين توقف عن تناول الطعام مرة ثانية. يذكر بيسو حين بدا هو تماماً كما يبدو آينشتاين الآن لكن لسبب آخر. شعر بيسو الذي لم تكن علاقته مع والده جيدة أبداً بالأسى الشديد وبالذنب. عُرقلت دراساته. وفوجئ حين جاء به آينشتاين إلى منزله واعتنى به شهراً كاملاً.

يشاهد بيسو آينشتاين الآن ويتمنّى لو أنه يستطيع أن يساعده لكن

آينشتاين لا يحتاج إلى مساعدة. بالنسبة لبيسو، آينشتاين لا يتألم. يبدو متناسياً لجسده وللعالم.

يقول آينشتاين مرة أخرى: «أنا أحرز تقدماً: أعتقد أن الأسرار ستنكشف. هل شاهدت بحث لورينتز الذي تركته على مكتبك؟»

«إنه سيء».

«نعم، سيء ومخصص لغرض معين وعلى الأرجح ليس صحيحاً. تخبرنا التجارب الكهرطيسية شيئاً ما أكثير أهميةً».

يحك آينشتاين شاربه ويأكل بنهم البسكويت الرقيق الموجود على الطاولة.

يصمت الرجلان قليلاً. يضع بيسو أربعة مكعبات سكر في فنجان قهوته بينما يحدق آينشتاين إلى جبال الألب البيرينية البعيدة جداً والتي لا تكاد ترى بسبب الضباب. وفي الحقيقة، ينظر آينشتاين عبر جبال الألب إلى الفضاء. أحياناً تسبب له رؤية بعيدة كهذه صداعاً وعندئذ يتوجب عليه أن يستلقي مغمض العينين على خوانه الملبس بقماش أخضر.

يقول له بيسو: «تريدك آنا أن تأتي أنت وميليفيا إلى العشاء غداً، وبوسعكما إحضار الطفل إذا شئتما».

يهز آينشتاين رأسه.

يحتسي بيسو فنجان قهوة آخر، ينظر إلى امرأة تجلس إلى طاولة

مجاورة ويُثني قميصه. شعره منفوش كشعر آينشتاين الذي كان هذه المرة يحدق إلى المجرات.

يقلق بيسو فعلاً على صديقه رغم أنه شاهده هكذا في الماضي. ربما سيلهيه العشاء.

يقول بيسو: «مساء السبت».

يقول آينشتاين بشكل غير متوقع: «أنا مشغول مساء السبت لكن ميليفا وهانز آلبرت يستطيعان المجيء».

يضحك بيسو ويقول: «مساء السبت في الثامنة». احتار لماذا تزوج صديقه. آينشتاين نفسه لا يستطيع أن يشرح ذلك. اعترف مرة لبيسو أنه كان يأمل أن تقوم ميليفا بالأعمال المنزلية على الأقل إلا أن المسألة لم تسر على هذا النحو. بقي السرير دون ترتيب والغسيل متسخاً وتكوّمت الصحون كما حدث من قبل. وقد ازدادت المشاغل بعد ولادة الطفل.

يسأله بيسو: «ما رأيك بتطبيق راسموسين»؟

«الزجاجة النابذة».

«نعم».

يقول آينشتاين: «سيتذبذب العمود كثيراً بحيث تنعدم فائدته، إلا أن الفكرة ذكية. أعتقد أنه سيعمل بصعود مرن يستطيع أن يعثر على محور دورانه الخاص».

يعرف بيسو ماذا يعني هذا الكلام. سيضع آينشتاين تصميماً

جديداً ويرسله إلى راسموسين دون أن يطلب أجراً أو اعترافاً. وغالباً لا يعرف متلقو اقتراحات آينشتاين المحظوظون من الذي راجع طلبات اختراعاتهم. لا يعني هذا أن آينشتاين لا يستمتع بالشهرة. منذ بضع سنوات، حين شاهد بحثه الأول منشوراً في مجلة الفيزياء السنوية قلّد ديكاً خمس مرات بشكل كامل.

٢ حزيران ١٩٠٥

تُرفَع خوخة رخوة من القمامة وتوضع على الطاولة كي تتورّد، تتورّد، تصبح صُلبة وتُحمل في كيس تسوّق إلى البقالية، توضع على الرف، تزال، توضع في سلة وتعاد إلى الشجرة ذات البراعم القرنفلية. ذلك أن الزمن يتدفق إلى الوراء في هذا العالم.

تجلس امرأة هرمة لا تكاد تتحرك على كرسي، وجهها أحمر ومنتفخ، فاقدة للبصر وللسمع وتنفسها أجش كحفيف الأوراق الذابلة على الأحجار. تمرّ الأعوام، يقل الزوار. تكتسب المرأة القوة تدريجياً، يزداد أكلها، تفقد الخطوط الثقيلة التي في وجهها، تسمع أصواتاً، موسيقا. تتوضح ظلالٌ غامضة في الضوء وأيضاً خطوط وصور الطاولات والكراسي ووجوه البشر. تتنزّه خارج منزلها الصغير، تذهب إلى السوق، تزور صديقة أحياناً، تشرب الشاي في المقاهي حين يكون الطقس صاحياً. تخرج إبراً وخيوطاً من قاع درج خزانتها وأيضاً نسيجاً محبوكاً. تبتسم حين تحبّ عملها. في أحد الأيام يُنْقل زوجها بوجه شاحب إلى منزلها. بعد ساعات يتورد خداه، يقف محنياً كتفيه إلى الأمام، ينتصب،

يتحدث معها. يصبح منزلها منزلهما. يأكلان الوجبات سوية، يرويان نكات، يضحكان. يسافران عبر البلاد، يزوران أصدقاءهما. يسودّ شعرها الشائب ويكتسي بخطوط بنية ويصدح صوتها بألحان جديدة. تذهب إلى حفل تقاعد في المدرسة وتبدأ تدريس التاريخ. تحبُّ طلابها. تتجادل معهم بعد الدرس. تقرأ أثناء ساعة غذائها وفي الليل تلتقي بالأصدقاء وتناقش التاريخ والأحداث الجارية. تساعد زوجها في إعداد حساباته في مخزن الأدوية، تسير معه في سفح الجبال وتمارس معه الحب. يصبح جلدها ناعماً وشعرها طويلاً وبنياً وثدياها صلبين. تشاهد زوجها للمرة الأولى في مكتبة الجامعة وتستجيب لنظراته. تحضر الدروس. تتخرج من المدرسة بينما والدها وأختها يذرفان دموع السعادة. تعيش في المنزل مع والديها، تمضي ساعات مع أمها سائرة عبر الغابات قرب المنزل، تساعد في جلي الصحون. تروي قصصاً لأختها الصغيرة، يُقرأ لها في الليل قبل النوم، تزداد صغراً، تزحف وترضع.

يسير رجل متوسط العمر على خشبة مسرح صالة في ستوكهولم حاملاً ميدالية. يصافح رئيس أكاديمية العلوم السويدية، يستلم جائزة نوبل في الفيزياء ويُصغي إلى الخطاب التنويهي العظيم. يفكر الرجل لوهلة قبل تسلم الجائزة. تنتقل أفكاره بسرعة عشرين عاماً إلى المستقبل حيث سيعمل وحيداً في غرفة صغيرة بقلم رصاص وورقة فقط. سيعمل ليلاً ونهاراً ويقوم بكثير من البدايات الخاطئة مالئاً سلة المهملات بسلسلة غير ناجحة من المعادلات والنتائج

المنطقية. لكنه سيعود في بعض الأمسيات إلى مكتبه عارفاً أنه تعلم أشياء عن الطبيعة لم يعرفها أحد من قبل، أنه دخل مغامراً إلى الغابة وعثر على الضوء وحظي بأسرار ثمينة. في تلك الأمسيات سيخفق قلبه كأنه واقع في الغرام.

يتغلب عليه الآن توقّع اندفاع الدم ذاك، وذلك الوقت حين سيكون شاباً ومجهولاً وخائفاً من الأخطاء وهو يجلس على كرسيه في الصالة في ستوكهولم بعيداً جداً عن الصوت الخافت للرئيس الذي يعلن اسمه.

يقف رجل إلى جانب قبر صديقه، يرمي حفنة من التراب على الكفن شاعراً بمطر نيسان البارد على وجهه. لكنه لا يبكي. ينظر إلى الأمام، إلى اليوم الذي ستصبح فيه رئتا صديقه قويتين، حين سيخرج صديقه من فراشه ويضحك حين سيشرب الاثنان الجعة معاً ويبحران ويتحدثان. إنه لا يبكي. ينتظر بتوق يوماً معيناً يتذكره في المستقبل حين سيتناول هو وصديقه سندويتشات إلى طاولة مسطحة منخفضة، حين سيصف خوفه من الشيخوخة ومن غياب الحب وسيهز صديقه رأسه بلطف حين ينزلق المطر إلى الأسفل على زجاج النافذة.

٣ حزيران ١٩٠٥

تخيّلْ عالماً يعيش فيه البشر يوماً واحداً فقط. إما أن تُسرَّع نسبة دقات القلب والتنفس بحيث تُضغط فترة حياة كاملة إلى ما يعادل دورة واحد للأرض على محورها، أو يُخَفَّف دوران الأرض إلى السرعة البطيئة[1] بحيث أن دورة واحدة تستغرق حياة بشرية كاملة. التفسيران صحيحان، وفي كلتا الحالتين يرى الرجل أو المرأة شروقاً واحداً، غروباً واحداً.

لا أحد في هذا العالم يعيش ليشهد تعاقب الفصول. إن شخصاً يولد في أية بلاد أوروبية في كانون الأول، لا يرى أبداً الناردين والزئبق، نبات النجمية، قرن الغزال والشريف الأبيض[2]، لا يسمع أبداً أصوات الجنادب أو تغريد الطيور. الشخص الذي يولد في كانون الأول يعيش حياته في البرد. كذلك، امرأة تولد في تموز لا تشعر أبداً بندفة ثلج على خدها، لا تشاهد أبداً الكريستال على بحيرة متجمدة، لا تسمع أبداً صرير الأبواط على الثلج الطري.

---

(١) أو السرعة الأولى.

(٢) نبات جبلي من الفصيلة المركبة له أوراق مستطيلة تحف بأزهاره.

امرأة تولد في تموز تعيش حياتها في الدفء. ويُعرف عن تنوع الفصول من خلال الكتب.

الضوء يخطط الحياة في هذا العالم، ولذلك فإن الشخص الذي يولد عند الغروب يمضي النصف الأول من حياته في الليل، يتعلم مهناً داخلية كالحياكة وصناعة الساعات، يقرأ كثيراً، يصبح مفكراً، يأكل كثيراً، يخاف من الظلمة الشاملة في الخارج، يحرثُ الظلال. أما الذي يولد عند شروق الشمس فيتعلم مهناً خارجية كالزراعة والبناء، يصبح قوي البنية، يتجنب الكتب والمشاريع الذهنية، يكون مشرقاً ولا يخشى أي شيء.

يتعثر كلٌّ من أطفال الغروب وأطفال الشروق حين يتبدل الضوء. حين يأتي الشروق ينصعق الذين ولدوا عند الغروب من المنظر المفاجئ للأشجار والبحار والجبال، يعميهم ضوء النهار، يعودون إلى منازلهم ويغطون نوافذهم، يمضون نصف حياتهم في الضوء الخافت. حين يأتي الغروب، يعول الذين ولدوا عند الشروق على اختفاء الطيور من السماء وطبقات الزرقة من البحر والحركة المخدرة للغيوم.

يعولون ويرفضون تعلم الحرف المظلمة الداخلية، يستلقون على الأرض وينظرون إلى الأعلى ويصارعون ليشاهدوا ما شاهدوه مرة.

في هذا العالم الذي تستمر فيه الحياة البشرية يوماً واحداً ينتبه البشر إلى الزمن كقطط تجهد لتسمع الأصوات في العلية. ذلك أنه

لا يوجد زمن يفقدونه. إنّ الولادة والدراسة وعلاقات الحب والشيخوخة والمهنة يجب أن تتلاءم مع انتقال واحد للشمس، تعديل واحد للضوء. حين يمر البشر في الشارع، يرتدون قبعاتهم ويسرعون إلى المنزل. حين يلتقى البشر في المنازل، يتحققون باحترام عن صحة بعضهم بعضاً ثم ينصرفون إلى شؤونهم. حين يتجمع البشر في المقاهي يدرسون بعصبية تنقل الظلال ولا يجلسون طويلاً. إنّ الزمن ثمين جداً. الحياة لحظة في فصل، الحياة سقوط واحد للثلج. الحياة يوم خريفي واحد. الحياة هي الحافة الرقيقة السريعة لظل باب يُغلق، الحياة لحظة قصيرة من الأذرع والأرجل.

حين تأتي الشيخوخة سواء في الضوء أو في الظلمة، يكتشف المرء أنه لا يعرف أحداً. لم يكن هناك زمن. تلاشى الآباء والأمهات في منتصف النهار أو منتصف الليل، انتقل الأخوة والأخوات إلى مدن بعيدة للقبض على فرص عابرة، تغير الأصدقاء مع تغير زاوية الشمس، خُططَت المنازل والبلدات والوظائف والعشاق لتتناسب مع حياة ضُغطتْ في يوم واحد.

إن شخصاً في الشيخوخة لا يعرف أحداً، يتحدث مع الناس لكنه لا يعرفهم، تتبعثر حياته في شظايا الحديث وتنساها شظايا البشر، تنقسم حياته إلى حوادث مسرعة تشهدها قلة. يجلس إلى طاولته التي قرب الفراش ويصغي إلى صوت حمامه المتدفق بالماء

ويتساءل إن كان أي شيء قد وُجد خارج ذهنه. هل وُجد حقاً ذلك العناق الذي عانقته إياه أمه؟ هل وُجدت حقاً تلك المنافسة المضحكة مع صديق مدرسته؟ هل وجدت حقاً تلك الرعشة الأولى من ممارسة الجنس؟ هل وُجدت عشيقته؟ أين هذه الأشياء الآن؟ أين هي الآن، وهو يجلس إلى طاولة فراشه مصغياً إلى صوت حمامه المتدفق مدركاً بغموض التبدل في الضوء.

٥ حزيران ١٩٠٥

إن وصف موقع ومظهر الأنهار والأشجار والأبنية والبشر يظهر أن كل الأشياء مشتركة. ينعطف نهر آري يساراً، منقطاً بزوارق تحمل البطاطا والشوندر السكري. ينقط صنوبر الآرولا التلال السفحية لجبال الألب، تنحني الأغصان المحملة بالثمار المخروطية الشكل إلى الأعلى كأذرع الشمعدان. تتوضع المنازل المؤلفة من ثلاثة طوابق والسقوف القرميدية الحمراء والنوافذ العمودية الناتئة هادئة في «آرستراس» مطلة على النهر. يلوح البقالون في السوق بأذرعهم لجميع العابرين منادين على المناديل والساعات الرائعة والبندورة والخبز المالح والشمار. تعبق الجادات برائحة اللحم المجفف. يقف رجل وامرأة على شرفة منزلهما في شارع كرام يتجادلان ويبتسمان أثناء المجادلة. تسير فتاة شابة ببطء عبر الحديقة في كلاينشانسا. ينفتح باب مكتب البريد الضخم المصنوع من الخشب الأحمر وينغلق، ينفتح وينغلق. ينبحُ كلب.

ولكن إذا شوهد بعيني أي شخص يبدو المشهد مختلفاً تماماً. مثلاً، تشاهد امرأة تجلس على ضفة نهر آري القوارب تعبر بسرعة

كبيرة وكأنها تتحرك على زلاجات عبر الجليد. بالنسبة لامرأة أخرى، تبدو القوارب بطيئة لا تكاد تلف المنعطف طول بعد الظهر كله. ينظر رجل واقف في «آرستراس» إلى النهر ليكتشف أن الزوارق تتحرك في البداية إلى الأمام ثم إلى الخلف.

تتكرر هذه الفروق في مكان آخر. يسير صيدلاني عائداً إلى محله في شارع كوخر بعد أن تناول وجبة الظهر. هذه هي الصورة التي يشاهدها: تعدو امرأتان وتعبرانه، تهزان ذراعيهما بوحشية وتتحدثان بسرعة بحيث لا يفهم ما تقولانه. يركض محام عبر الشارع إلى موعد في مكان ما، يهتز رأسه جيئة وذهاباً كرأس حيوان صغير. تندفع كرة يقذفها طفل من شرفة كرصاصة، سحابة لا تكاد ترى. لمح سكان شارع ٨٢ لتوهم عبر نافذتهم يطيرون في المنزل من غرفة إلى أخرى، يجلسون لحظة، يتناولون وجبة في دقيقة واحدة، يختفون، يعاودون الظهور. تجتمع الغيوم التي في الأعلى، تنفصل، تجتمع ثانية مع حركة الشهقات والزفرات المتعاقبة.

في الجانب الآخر من الشارع يلاحظ الخباز المشهد نفسه. يشاهد امرأتين تطوفان في الشارع بتمهل، تتوقفان للتحدث مع محام ثم تسيران. يدخل المحامي إلى شقة في شارع ٨٢، يجلس إلى طاولة لتناول الغداء، يسير إلى نافذة الطابق الأول حيث يمسك كرة قذفها طفل من الشارع.

وبالنسبة لشخص يقف تحت حامل مصباح في شارع كوخر لا تمتلك الحوادث حركة على الإطلاق: امرأتان، محام، كرة،

طفل، ثلاثة قوارب، داخل شقة، كلُّ هذه الأشياء تُشاهد كلوحات في ضوء الصيف المتألق.

والأمر مشابه مع أي تعاقب للأحداث في هذا العالم حيث الزمن حاسّة.

في عالم يكون فيه الزمن حاسة كالبصر أو الذوق، قد يصبحُ تعاقب الأحداث سريعاً أو بطيئاً، باهتاً أو متوتراً، مالحاً أو عذباً، سببياً أو بدون سبب، منظماً أو عشوائياً، وفق التاريخ السابق للمشاهدة.

يجلس الفلاسفة في مقاهي شارع أمتهاوس ويتجادلون إن كان الزمن قد وجد فعلاً خارج الإدراك الحسي البشري. من يستطيع أن يقول إن الحدث يحدث بسرعة أم ببطء، بسبب أو بدون سبب، في الماضي أو في المستقبل؟ من يستطيع أن يقول إن الحوادث تحصل؟ يجلس الفلاسفة بأعين نصف مغمضة ويقارنون علوم جمالهم المتعلقة بالزمن.

يولد بعض البشر دون أي إحساس بالزمن. فيزداد إحساسهم بالمكان إلى درجة معذبة. يستلقون على الأعشاب الطويلة ويسألهم شعراء ورسامون من جميع أنحاء العالم. هؤلاء الذين يديرون أذناً صماء للزمن يتم التوسل اليهم ليصفوا الموقع الدقيق للأشجار في الربيع، شكل الثلج على جبال الألب، زاوية الشمس على كنيسة، موقع الأنهار، موضع الطحالب، نموذج الطيور في سرب، إلا أنّ الذين يديرون أذناً صماء للزمن لا يقدرون على قول ما يعرفونه. ذلك أن الكلام يتطلب تعاقب كلمات منطوقة في الزمن.

٩ حزيران ١٩٠٥

تخيل أن البشر يعيشون إلى الأبد:

ينقسم سكان كل مدينة إلى سكان فيما بعد وسكان الآن.

يفكر سكان فيما بعد أنه لا توجد عجلة لبدء دروسهم الجامعية ولتعلم لغة ثانية ولقراءة فولتير أو نيوتن، للبحث عن ترقية في وظائفهم، للحب، لتأسيس أسرة. ثمة فترة زمنية لا نهائية لكل هذه الأشياء. في الزمن اللا نهائي يمكن إنجاز جميع الأشياء. وهكذا بوسع الأشياء أن تنتظر. وفي الحقيقة يؤدي الاستعجال إلى ارتكاب الأخطاء. من يستطيع أن يدحض منطقهم؟ يمكن التعرف على سكان فيما بعد في أي حانوت أو رواق. يمشون مشية خفيفة رشيقة ويرتدون ثياباً فضفاضة، يستمتعون بقراءة أية مجلات مفتوحة أو يعاودون ترتيب الأثاث في منازلهم أو ينزلقون في المحادثة بالطريقة التي تسقط فيها ورقة عن شجرة. يجلس سكان فيما بعد في المقاهي يحتسون القهوة ويناقشون احتمالات الحياة.

يرى سكان الآن أنهم يستطيعون أن يفعلوا أي شيء يتخيلونه بحيواتٍ لا نهائية. سيتعلمون عدداً لا نهائياً من المهن، سيتزوجون

عدداً لا نهائياً من المرات، سيبدلون سياستهم دائماً. سيصبح كلُّ شخص محامياً، أجّاراً، كاتباً، محاسباً، رساماً، فيزيائياً، مزارعاً. يقرأ سكان الآن باستمرار كتباً جديدة، يدرسون مهناً جديدة، لغات جديدة. ومن أجل أن يتذوقوا لانهائيات حيواتهم يبدؤون باكراً ولا يتقاعسون أبداً. ومن يستطيع أن يشكك بمنطقهم؟ يتحرك أساتذة الجامعة، والأطباء والممرضات، والبشر الذين يهزون أرجلهم باستمرار أينما جلسوا، عبر تعاقب حيوات متلهفين ألا يفقدوا شيئاً. حين يلتقي اثنان من سكان الآن يلتقيان قرب عمود نافورة تسيرغنا السداسي الأضلاع، يقارنان الحياتين اللتين عاشاها، يتبادلان المعلومات والنظرات إلى ساعتيهما. حين يلتقي اثنان من سكان فيما بعد في الموضع نفسه يتساءلان عن المستقبل ويتابعان القطع المكافئ للماء ببصرهما.

يشترك سكان الآن وسكان فيما بعد في شيء واحد: الحياة اللا نهائية تنتج قائمة من الأقرباء لا نهاية لها. لا يموت الأجداد أبداً ولا أجداد الأجداد ولا عمات وأعمام الآباء ولا عمات العمات وقس على ذلك على مدى الأجيال. يبقى الجميع أحياء ويقدمون النصائح. لا ينجو الأبناء أبداً من ظلال آبائهم ولا البنات من ظلال أمهاتهن. لا يستقل أي شخص أبداً.

حين يبدأ إنسان مشروعاً يشعر أنه مجبر على أن يتحدث عنه مع والديه وجديه ووالدي جديه إلى ما لا نهاية، ليتعلم من أخطائهم.

ذلك أنه لا يوجد مشروع جديد. جُرِّبت جميع الأشياء سابقاً في شجرة العائلة. وفي الحقيقة، أنجزت جميع الأشياء، ولكن مقابل ثمن. ذلك أنه في عالم كهذا تحدّد قلّة الطموح تعدّد الإنجازات.

حين تحتاج الابنة إلى توجيه من أمها، لا تستطيع أن تحصل عليه منها: أمها يجب أن تسأل أمها وهكذا إلى الأبد. وكما لا يستطيع الأبناء والبنات أن يتخذوا قراراتهم الخاصة، لا يستطيعون أن يلجأوا إلى آبائهم وأمهاتهم من أجل نصيحة ثقة. وليس الآباء والأمهات مصدر اليقين، ثمة مليون مصدر.

حيث يجب أن يُنوع كل فعل مليون مرة، تكون الحياة تجريبية تُبنى الجسور إلى منتصفها فوق الأنهار ثم يتوقف بناؤها فجأة. ترتفع الأبنية تسعة طوابق لكنها لا تمتلك سقوفاً. مؤن البقال من الزنجبيل والملح وسمك البقلاي ولحم البقر تتغير مع كل تغيير للرأي وكل استشارة. الجمل لا تكتمل. تنتهي الخطبة قبل أيام من حفلة الزفاف. وفي الجادات والشوارع يدير البشر رؤوسهم ويحدقون إلى الوراء ليشاهدوا من الذي يراقبهم من أفراد العائلة.

هذه هي كلفة الخلود. لا شخص كاملاً، لا شخص حراً. مع مرور الزمن، قرر البعض أن الطريقة الوحيدة للحياة هي الموت. في الموت يتحرر الرجل أو المرأة من ثقل الماضي، تغوص هذه الأرواح القليلة، على مرأى من أقربائها، في بحيرة كونستانس أو

تقذف نفسها عن مونت ليما منهية حيواتها. بهذه الطريقة غزا المنتهي اللا منتهي، أذعنت ملايين فصول الخريف لغياب فصول الخريف، ملايين الثلجات لغياب سقوط الثلج، ملايين النصائح والتحذيرات لغياب النصائح والتحذيرات.

١٠ حزيران ١٩٠٥

تخيّل أن الزمن نوع وليس كماً كمثل الإضاءة الليلية فوق الأشجار حين يلمس قمرٌ طالعٌ خط الشجرة. الزمن يوجد لكنه لا يمكن أن يُقاس.

الآن، في بعد ظهر مشرق، تقف امرأة وسط ساحة بانهوفبلاتز منتظرة لقاء رجل. منذ فترة شاهدها في القطار المتوجه إلى فرايبورغ، تسمر في مكانه وطلب أن يأخذها إلى حدائق كالاينشانسا، ومن إلحاح صوته ونظرة عينيه عرفت المرأة أنه يعني حالاً. وهكذا تنتظره لكن ليس بفارغ صبر بل تمضي الوقت في قراءة كتاب. فيما بعد، ربما في اليّوم التالي، يصل. يشبكان ذراعيهما ويسيران إلى الحدائق، يطوفان قرب تجمع الزنبق والورود والمارتاغون وحشيشة الأسد الألبية، يجلسان على مقعد أبيض من خشب الأرز فترة غير قابلة للتحديد. يخيم المساء، يحدده تبدّل في الضوء واحمرارٌ في السماء. يتبع الرجل والمرأة ممراً ملتوياً من الأحجار البيضاء الصغيرة ويصعدان إلى مطعم يقع على تلة. هل كانا معاً فترة حياة أم لحظة فقط؟ من يستطيع أن يجيب.

تشاهد الأم ابنها عبر نوافذ المطعم المرصصة جالساً مع المرأة. تعصر يديها وتُعول لأنها تريد ولدها في المنزل. تراه كطفل. هل مرَّ أي زمن منذ أن عاش في المنزل ولعب بالكرة وحك ظهر أمه قبل النوم؟ تشاهد الأم تلك الضحكة الطفولية بادية في ضوء الشمعة من خلال نوافذ المطعم المرصصة وهي متأكدة أن الزمن لم يمر، أن ابنها، طفلها، ينتمي إليها في المنزل. تنتظر في الخارج وهي تعصر يديها بينما يتقدم ابنها في السن بسرعة في حميمية ذلك المساء ومع المرأة التي التقى بها. في الجانب الآخر من شارع أربيرغا، يتجادل رجلان حول شحنة أدوية. المتلقي غاضب لأن الأدوية التي تملك حياة قصيرة على الرف وصلت بعد أوانها وفاقدة للفعالية. كان يتوقعها منذ فترة طويلة وفي الحقيقة كان ينتظرها في محطة القطار لبعض الوقت أثناء مجيء وذهاب السيدة الشائبة في شارع شبيتال، أثناء نماذج عديدة للضوء على جبال الألب، عبر تبدلات الجو من الدفء إلى البرودة إلى الرطوبة. أهينَ المرسل السمين ذو الشارب. لقد عبأ المواد الكيماوية في مصنعه في مدينة بال حالما سمع ظلات الحوانيت تُرفع في السوق. حمل الصناديق إلى القطار بينما كانت الغيوم ما تزال في المواضع نفسها كما حدث حين وُقع العقد. ماذا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك؟

في العالم الذي لا يمكن فيه قياس الزمن لا توجد ساعات أو تقاويم أو مواعيد محددة. تُولّد الأحداث أحداث أخرى لا الزمن. يُشرع في بناء منزل حين تصل الأحجار وألواح الخشب إلى موقع

البناء. يرسل المحجر أحجاراً حين يحتاج عامل المحجر إلى النقود. يغادر المحامي منزله ليناقش قضية في المحكمة العليا حين تنكتُ ابنته على صلعه المتزايد. تُختتم الدراسة في المدرسة في بيرن حين ينجح الطالب في الامتحانات. تغادر القطارات المحطة في ساحة بانهوفبلاتز حين تمتلئ العربات بالمسافرين.

في العالم الذي يكون فيه الزمن نوعاً يسجل الأحداث لون السماء، نبرة صرخة المراكبيّ في نهر آري، شعور السعادة أو الخوف حين يدخل المرء غرفة. إن ولادة طفل وبراءة اختراع ولقاء شخصين ليست هذه نقاطاً ثابتة في الزمن تحددها الساعات والدقائق. بدلاً من ذلك، تنزلق الأحداث عبر فضاء المخيلة وتجسدها نظرة أو رغبة. كذلك يكون الوقت بين حدثين طويلاً أو قصيراً وفق خلفية الأحداث المتغايرة، حدة الإشراق، درجة الضوء والظل، وجهة نظر المشاركين.

يحاول بعض البشر أن يجعلوا الزمن كمياً، أن يحللوه، أن يشرِّحوه. يتحجّرون. تقف أجسادهم جامدة وباردة وصلبة وثقيلة في زوايا الشارع. تؤخذ هذه الأجساد مع مرور الزمن إلى عامل المحجر الذي يقطعها بشكل مستوٍ إلى قطع متساوية ويبيعها للمنازل حين يحتاج نقوداً.

١١ حزيران ١٩٠٥

ثمة مقهى رصيفي صغير فيه ست طاولات زرقاء وصف من نبات البطومة الأزرق في صندوق نافذة الشيف. يقع هذا المقهى في زاوية شارع كرام ومسرح بلاتز. يستطيع المرء أن يشاهد من هذا المقهى ويسمع بيرن كلّها. يندفع البشر عبر الأروقة المقنطرة في شارع كرام، يتحدثون ويتوقفون لشراء الكتان أو ساعات اليد أو القرفة، تتبع مجموعة من طلاب مدرسة القواعد في شارع كوخر مدرّسها في صف واحد عبر الشوارع إلى ضفاف نهر آري بعد أن سُمح لهم بالخروج من أجل استراحة الصباح، يتصاعد الدخان ببطء من طاحونة فوق النهر، يخرخر الماء المندفع من أنابيب نافورة تسيرغنا، تدق ساعة البرج العملاقة في شارع كرام معلنة ربع الساعة.

إذا تجاهل المرء للحظة أصوات وروائح المدينة سيشاهد منظراً مهماً. سيرى رجلين في زاوية شارع كوخر يحاولان أن ينفصلا بيد أنهما لا يستطيعان وكأنهما لن يلتقيا مرة ثانية. يودّعان بعضهما بعضاً، يبدآن السير في اتجاهين متعاكسين ثم يعودان ويتعانقان. في

الجوار تجلس امرأة متوسطة العمر على حافة نافورة حجرية وتبكي بصمت. تمسك الحجر بيديها الصفراوين الملطختين، تمسكه بشدة بحيث يندفع الدم من يديها وتحدق بيأس إلى الأرض. تمتلك عزلتها ديمومة شخص يعتقد أنه لن يرى بشراً آخرين مرة أخرى. امرأتان ترتديان كنزتين تطوفان في شارع كرام، تشبكان ذراعيهما وتضحكان بتهتك يوحي بأنهما لا تفكران بالمستقبل إطلاقاً.

في الحقيقة، هذا عالم بدون مستقبل. إن الزمن في هذا العالم خط يتلاشى في الحاضر واقعياً وذهنياً. لا أحد في هذا العالم يقدر أن يتخيل المستقبل. إن تخيل المستقبل ليس ممكناً مثله مثل رؤية الألوان ما وراء البنفسجية: لا تقدر العين أن تدرك ما يكمن وراء النهاية المرئية للطيف. في عالم بلا مستقبل كلُّ انفصال للأصدقاء هو موت. في عالم بلا مستقبل كلّ عزلة هي نهائية. في عالم بلا مستقبل كل ضحكة هي الضحكة الأخيرة. في عالم بلا مستقبل يتعلق البشر بالحاضر وكأنهم على حافة جرفٍ.

إن امرءاً لا يستطيع أن يتخيل المستقبل هو امرؤ لا يقدر أن يتأمل نتائج أفعاله. وهكذا يُشَلُّ البعض في حالة اللا فعل، يستلقون في أسرتهم طول النهار مستيقظين بيد أنهم يخافون من ارتداء ملابسهم، يحتسون القهوة وينظرون إلى الصور. يقفز آخرون من الأسرة في الصباح غير آبهين بأن كل فعل يقود إلى العدم وبأنهم لا يستطيعون أن يضعوا لحياتهم مخططاً. يعيشون لحظة بعد لحظة

وكل لحظة هي مكتملة. وثمة آخرون يستبدلون المستقبل بالماضي: يستعيدون جميع الذكريات، جميع الأفعال التي سبق وأُنجزتْ، جميع الأسباب والنتائج ويندهشون كيف أرسلتهم الحوادث إلى هذه اللحظة، اللحظة الأخيرة للعالم، نهاية الخط الذي هو الزمن.؟

في المقهى الصغير الذي يحوي ست طاولات وصف بطومة يجلس شاب ويتناول القهوة والفطائر. كان يراقب الشارع بكسل. لقد شاهد المرأتين الضاحكتين اللتين ترتديان كنزتين والمرأة المتوسطة العمر عند النافورة والصديقين اللذين يواصلان توديع بعضهما. وبينما هو جالس تشق سحابة ممطرة طريقها فوق المدينة. لكن الشاب يبقى جالساً إلى طاولته. يستطيع أن يتخيل الحاضر فقط والحاضر في هذه اللحظة سماء تدلهم ولكن بدون مطر. وبينما هو يحتسي القهوة ويأكل الفطائر يُدهشه كم هي معتمة نهاية العالم. والمطر لا يتساقط ويقعي وهو يقرأ جريدته في الضوء المتناقص محاولاً أن يقرأ السطر الأخير الذي سيقرأه في حياته. ثم ينهمر المطر. يدخل الشاب، ينزع سترته المبللة، يدهشه كيف ينتهي العالم تحت المطر. يناقش الطعام مع الشيف لكنه لا ينتظر توقف المطر لأنه لا ينتظر أي شيء. في عالم بلا مستقبل كل لحظة هي نهاية العالم. بعد عشرين دقيقة تعبر السحابة السوداء، يتوقف المطر وتصحو السماء. يعود الشاب إلى طاولته، يدهشه كيف ينتهي العالم في ضوء الشمس.

١٥ حزيران ١٩٠٥

الزمن بُعْدٌ مرئي في هذا العالم. وكما يستطيع المرء أن ينظر بعيداً ويرى المنازل والأشجار وقمم الجبال التي هي علائم في المكان، يستطيع أن ينظر في اتجاه آخر ويرى الولادات والزواج والموت التي هي علائم في الزمن وتمتد بغموض إلى المستقبل البعيد.

وكما يمكن أن يختار المرء البقاء في مكان أو الذهاب إلى مكان آخر، يمكنه أن يختار حركته على طول محور الزمن. يخاف بعض البشر من السفر بعيداً عن لحظة مريحة. يبقون قريبين من موقع واحد مؤقت لا يكادون يعبرون مناسبة مألوفة. يركض آخرون بخفة وطيش إلى المستقبل دون استعداد لتعاقب الأحداث العابرة السريع.

يجلس في المعهد العلمي العالي في زوريخ شاب وأستاذه المشرف في مكتبة صغيرة ويناقشان بهدوء عمل الشاب بينما النار تلتهب في الموقد ذي اللوح الرخامي الأبيض. يجلس الشاب وأستاذه المشرف على كرسيين مريحين من خشب البلوط قرب طاولة مستديرة تنتشر عليها صفحات الحسابات. كان البحث صعباً.

كان الشاب يقابل أستاذه مرة كل شهر في الأشهر الثمانية الماضية في هذه الغرفة ويطلب منه التوجيه والأمل ثم يذهب ليعمل شهراً آخر ويعود بأسئلة جديدة. كان البروفسور يجيب على الأسئلة دائماً. واليوم أيضاً يشرح البروفسور وبينما هو يتحدث، يحدق الشاب إلى الخارج عبر النافذة، يدرس طريقة تعلق الثلج بشجر التنّوب القريب من البناء ويتساءل كيف سيرتب أموره حالما يحصل على شهادته. جالساً على كرسيّه، يخطو الشاب متردداً إلى الأمام في الزمن، يخطو دقائق فقط في المستقبل ويرتجف من البرد وغياب اليقين. ينسحب عائداً. من الأفضل البقاء في هذه اللحظة قرب النار الدافئة والمساعدة الكريمة لأستاذه المشرف. من الأفضل التوقف عن الحركة في الزمن. وهكذا، في هذا اليوم يبقى الشاب في المكتبة الصغيرة. يعبره أصدقاؤه، ينظرون مدة وجيزة ليشاهدوه واقفاً في هذه اللحظة ثم يتابعون السير إلى المستقبل بخطواتهم الخاصة.

في فيكتورياستراس في بيرن، تستلقي شابة في سريرها. تدخل أصوات شجار والديها إلى غرفتها، تغطي أذنيها وتحدق إلى صورة تتوضع على طاولتها، إلى صورتها حين كانت طفلة تجلس على الشاطئ مع والديها. يستند إلى أحد الجدران صندوق كستنائي اللون. يتوضع حوض غسيل من البورسلان على المكتب. طلاء الجدران الأزرق متقشر ومتشقق. عند قدم سريرها ثمة حقيبة مفتوحة ممتلئة حتى منتصفها بالثياب. تحدق إلى الصورة ثم خارجاً إلى الزمن. المستقبل يناديها. تتخذ قرارها. وبدون أن تنهي حزم

أغراضها تندفع خارجة من المنزل، من تلك النقطة في حياتها، وتتجه بشكل مستقيم إلى المستقبل. تعبر عاماً، خمسة أعوام، عشرة أعوام، عشرين عاماً وفي النهاية تُفرمل، لكنها تتحرك بسرعة بحيث أنها لا تستطيع أن تبطئ حتى تبلغ الخمسين. تتعاقب الأحداث أمام بصرها لكنها لا تكاد تشاهدها: محام أصلع أحبلها ثم غادر، ضباب عام في الجامعة، شقة صغيرة في لوزان لفترة من الوقت، صديقة في فرايبورغ، زيارات متقطعة لوالديها اللذين شابا، غرفة المستشفى التي توفيت أمها فيها، الشقة الرطبة في زوريخ، رائحة الثوم، حيث توفي والدها، رسالة من ابنتها التي تعيش في مكان ما من إنكلترة.

تحبس المرأة نَفَسها، إنها في الخمسين. تستلقي في سريرها، تحاول أن تتذكر حياتها، تحدق إلى صورتها كطفلة تجلس على الشاطئ مع أمها وأبيها.

١٧ حزيران ١٩٠٥

إنه صباح الثلاثاء في بيرن. يصيح الخباز ذو الإصبع السميكة في السوق على امرأة لم تدفع فاتورتها الأخيرة، يخبط بذراعيه بينما تضع هي الرغيف المحمّص في حقيبتها. خارج حانوت الخباز يتزلج ولد وراء كرة قُذفت من نافذة طابق أول. زلاّجتاه تصخبان على الشارع الحجري. في الطرف الشرقي من السوق حيث ينضم الشارع إلى شارع كرام يقف رجل وامرأة في ظل رواق مقنطر. يعبر رجلان حاملين جرائد تحت ذراعيهما. وعلى بعد ثلاثمائة متر إلى الجنوب يحلق طائر فوق نهر آري بكسل.

يتوقف العالم.

يتجمد فم الخباز في منتصف الجملة. يقف الطفل في منتصف الخطوة، تتوقف الكرة في الجو. يصبح الرجل والمرأة تمثالين تحت الرواق المقنطر. يتحول الرجلان إلى تمثالين وتتوقف محادثتهما وكأن إبرة فونوغراف رُفعت. يتجمد الطائر ويثبت معلقاً فوق النهر كقطعة ديكور على خشبة مسرح.

بعد جزء واحد من مليون جزء من الثانية يعود العالم إلى

الحركة. يواصل الخباز صراخه كأن شيئاً لم يحدث. يندفع الطفل وراء الكرة ويزداد اقتراب الرجل والمرأة من بعضهما بعضاً، ويتابع الرجلان النقاش حول ارتفاع الأسعار في سوق لحم البقر. يحرك الطائر جناحيه ويتابع طيرانه القوسي فوق نهر آري.

بعد دقائق يتوقف العالم ثانية، ثم يتحرك. يتوقف. يتحرك.

ما هذا العالم؟

ليس الزمن في هذا العالم مستمراً. الزمن متقطع في هذا العالم. الزمن هو تمددٌ للأنسجة العصبية: يبدو متواصلاً من بعيد ومتقطعاً من قريب، وثمة ثغرات ميكروسكوبية بين الأنسجة. يتدفق الفعل العصبي عبر جزء واحد من الزمن، يثبت فجأة، يتوقف، يقفز في فراغ ثم يستأنف مسيره في جزء مجاور.

ضئيلة جداً الانقطاعات في الزمن بحيث يجب أن تتمغنط ثانية واحدة وتُشرح إلى ألف جزء قبل أن يحدد جزء واحد مفقود من الزمن. ضئيلة هي الانقطاعات في الزمن بحيث أن الثغرات بين الأجزاء لا تُدرك. بعد كل إعادة بدء للزمن، يبدو العالم الجديد مثل القديم تماماً. تظهر مواقع وحركات الغيوم كما هي بالضبط وأيضاً مسارات الطيور وتدفق الأحاديث والأفكار.

لا تتلاءم أجزاء الزمن معاً بشكل مكتمل. أحياناً تحدث انزياحات ضئيلة جداً. مثلاً، في يوم الثلاثاء هذا في بيرن، يقف شاب وشابة تحت مصباح شارع غيربرن. تقابلا منذ شهر. يحبها

بتهور لكنه سُحق سابقاً على يد امرأة تركته دون تحذير وهو خائف الآن من الحب. يجب أن يتأكد من هذه المرأة. يتفحص وجهها، يتوسل إليها بصمت لتظهر مشاعرها الحقيقية، يبحث عن أدنى إشارة، عن أدنى حركة لحاجبها، عن أقل احمرار لخديها وعن نداوة عينيها.

تبادله المرأة المشاعر نفسها لكنها لا تستطيع أن تعبر عن حبها في كلمات. بدلاً من ذلك، تبتسم له غير مدركة لخوفه. وبينما يقفان تحت مصباح الشارع يتوقف الزمن ثم يتحرك. فيما بعد، ميلان رأسيهما هو نفسه بالضبط، دورة خفقان قلبيهما هي نفسها، لكن، في مكان ما، في البرك العميقة لذهن المرأة ظهرت فكرة باهتة لم تكن هناك من قبل. تصل المرأة الشابة إلى هذه الفكرة الجديدة، إلى لا شعورها وبينما هي تفعل ذلك يعبر فراغ واهٍ ابتسامتها. ورغم أن هذا التغير يستعصي إلا على التمحيص الدقيق، لاحظه الشاب واعتبره إشارته. يخبر المرأة أنه لا يستطيع أن يراها مرة أخرى، يعود إلى شقته الصغيرة في شارع تسويغهاوس، يقرر أن ينتقل إلى زوريخ ويعمل في مصرف عمه. تسير المرأة ببطء إلى منزلها مبتعدة عن حامل المصباح في شارع «غيربرن» وتتساءل لماذا لم يحبها الشاب.

فاصل

يجلس آينشتاين وبيسو في قارب صغير راس في النهر. يأكل بيسو سندويشة جبنة بينما ينفث آينشتاين دخان غليونه ويعدّ طعماً ببطء.

سأل بيسو الذي لم يذهب إلى الصيد مع آينشتاين من قبل:

«هل تصطاد عادة أي شيء هنا، من قارب صغير وسط نهر آري؟»

يجيب آينشتاين الذي يتابع الرمي: «أبداً».

«ربما يجب أن نقترب من الشاطئ إلى ذلك القصب»؟

يجيب آينشتاين: «نستطيع، لم أصطد أي شيء هناك أبداً. ألديك سندويشة أخرى في الحقيبة»؟

يقدّم بيسو سندويشة وزجاجة بيرة لآينشتاين، يشعر بالذنب لأنه طلب من صديقه أن يأخذه في بعد ظهر الأحد هذا. كان آينشتاين يخطط ليذهب وحيداً كي يفكر.

يقول بيسو: «كلْ. تحتاج إلى استراحة من سحب كل هذا السمك»؟

يخفض آينشتاين طعمه إلى حضن بيسو ويبدأ تناول السندويشة. لوهلةٍ يصمت الصديقان. يعبرهما قارب صغير محدثاً تموجاً أدى إلى اهتزاز القارب.

بعد الغداء يزيح آينشتاين المقاعد التي في القارب ويتمدد الصديقان على ظهريهما وينظران إلى السماء. لقد تخلى آينشتاين عن الصيد.

يسأل آينشتاين: «أية أشكال ترى في الغيوم يا ميشيل؟»

«أرى عنزة تطارد رجلاً عابساً».

«أنت رجل عملي يا ميشيل».

يحدق آينشتاين بالغيوم لكنه يفكر بمشروعه. يريد أن يخبر بيسو عن أحلامه، لكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك.

يقول بيسو: «أعتقد أنك ستنجح في نظريتك في الزمن وحين يحصل هذا سنأتي إلى الصيد وتشرحها لي. حين تصبح مشهوراً ستتذكر أنك أخبرتني قبل أي شخص آخر هنا في هذا القارب».

يضحك آينشتاين وتهتز الغيوم من ضحكه.

١٨ حزيران ١٩٠٥

متدفقاً من كاتدرائية في وسط روما يمتد رتل من عشرة آلاف إنسان منتشراً نحو الخارج كعقرب ساعة عملاقة ويتجه إلى حافة المدينة وما وراءها. ورغم ذلك، هؤلاء الحجاج الصبورون موجّهون نحو الداخل وليس إلى الخارج. ينتظرون دورهم ليدخلوا معبد الزمن. ينتظرون لينحنوا للساعة العظيمة. قطعوا مسافات طويلة وجاؤوا من بلدان أخرى ليزوروا هذا المعبد. يقفون الآن بهدوء بينما يزحف الرتل إلى الأمام عبر شوارع نظيفة. يقرأ البعض في كتب صلواتهم ويحمل البعض الآخر أطفالاً، بينما يأكل آخرون ثمار التين أو يشربون الماء. وبينما هم ينتظرون، يبدون متناسين لمرور الزمن. لا ينظرون إلى ساعات أيديهم لأنهم لا يمتلكون ساعات. لا يصغون لدقات ساعة البرج لأن ساعات البرج غير موجودة. ساعات اليد وساعات الحائط ممنوعة باستثناء الساعة العظيمة التي في معبد الزمن.

ينتصبُ داخل المعبد اثنا عشر حاجاً في حلقة حول الساعة العظيمة ويقف كل حاج على كل علامة للساعة، على الشكل

المعدني والزجاجي الضخم. داخل دائرتهم، يتأرجح بندول برونزي كبير يرتفع اثني عشر متراً ويتوهج في ضوء الشمعة. ينشد الحجاج مع كل فترة للبندول، ينشدون مع كل زيادة زمنية مُقاسة. ينشد الحجاج مع كل دقيقة تُنتزع من حيواتهم. هذه هي تضحيتهم.

بعد أن يقضوا ساعة أمام الساعة العظيمة يغادر الحجاج ويصطف اثنا عشر حاجاً آخر من خلال البوابات المرتفعة. استمر هذا الموكب قروناً.

منذ وقت طويل، قبل الساعة العظيمة، كان الزمن يُقاس عبر التبدلات التي تطرأ على الأجرام السماوية: المسار البطيء للنجوم عبر سماء الليل، تقوّس الشمس وتنوع الضوء، ازدياد ونقص القمر، المد، الجزر، الفصول. كان الزمن يُقاس أيضاً بدقات القلوب وإيقاعات النعاس والنوم والشعور بالجوع والدورات الشهرية للنساء ومدة الوحدة. ثم اخترعت الساعة الآلية الأولى في بلدة إيطالية صغيرة. سُحر البشر. ارتعبوا فيما بعد. هنا اختراع بشري أحصى مرور الزمن، وضع مسطرة وبوصلة لفُسحة الرغبة، قاس لحظات الحياة بدقة، كان لا يُطاق، كان خارج القانون الطبيعي. ورغم ذلك لا يمكن تجاهل الساعة الكبيرة. كان يجب أن تُعبد. أقنع المخترع أن يصنع الساعة العظيمة. فيما بعد، قُتل ودُمّرت جميع الساعات الأخرى وبعد ذلك بدأ الحج.

ونوعاً ما، تمر الحياة كما أمام الساعة العظيمة. تضجُّ شوارع

وأزقة البلدات بضحك الأطفال. تجتمع الأسر في الأوقات الملائمة لتأكل لحم البقر المجفف ولتشرب البيرة. ينظر الفتيان والفتيات إلى بعضهم بعضاً بخجل عبر ردهة رواق مقنطر. يزين الرسامون المنازل والأبنية بلوحاتهم. يتأمل الفلاسفة. لكن يمتلك كلُّ نَفَس، كلُّ وضع لرجل فوق أخرى، كلُّ رغبة رومانسية عقدة ضئيلة تعلقُ في الذهن. وكل فعل، مهما كان ضئيلاً، يفقد حريته: ذلك أن جميع البشر يعرفون أنه في كاتدرائية معينة في وسط روما يتأرجح بندول برونزي ضخم موصولاً بإحكام إلى سقاطات ومسننات، يتدلى بندول برونزي ضخم يقيس حيواتهم. ويعرف كل شخص أنه يجب أن يجابه في أحد الأوقات الفواصل الداشرة لحياته. يجب أن يبجل الساعة العظيمة. يجب أن يسافر جميع الرجال والنساء إلى معبد الزمن.

هكذا، في أي يوم، في أية ساعة من أي يوم يمتد رتل من عشرة آلاف شخص منتشراً نحو الخارج من وسط روما، رتل من الحجاج الذين ينتظرون لينحنوا للساعة العظيمة. يقفون هادئين، يقرأون كتب الصلوات، يحملون أطفالهم. يقفون هادئين لكنهم يفورون غضباً في السر. ذلك أنهم يجب أن يراقبوا قياس ما يجب ألا يُقاس. يجب أن يراقبوا المرور المنتظم للدقائق والعقود. لقد وقعوا في فخ اختراعهم واجترائهم، ويجب أن يدفعوا حياتهم ثمناً لذلك.

٢٠ حزيران ١٩٠٥

الزمن ظاهرة محلية في هذا العالم. تتكتكُ ساعتان قريبتان من بعضهما بعضاً بالسرعة نفسها تقريباً. لكن الساعات التي تفصلها المسافة تتحرك بسرعات مختلفة، وكلما ابتعدت أصبحت متعارضة. وما يصح على الساعات الكبيرة يصح على سرعة دقات القلب، حركة الشهيق والزفير، هبوب الريح في العشب الطويل. ذلك أن الزمن في هذا العالم يتدفق في سرعات مختلفة في أمكنة مختلفة.

وبما أن التجارة تتطلب اتحاداً مؤقتاً، لا توجد تجارة بين المدن. الانفصال بين المدن كبير جداً. ذلك أنه اذا كان الزمن الذي نحتاجه لإحصاء ألف فرنك سويسري يستغرق عشر دقائق في بيرن وساعة في زوريخ كيف يمكن أن تتعاون المدينتان؟ بالتالي، كل مدينة هي وحدها. كل مدينة هي جزيرة. يجب أن تزرع كل مدينة خوخها وكرزها وترعى ماشيتها وخنازيرها، كل مدينة يجب أن تبني طواحينها الخاصة. يجب أن تعتمد كل مدينة على نفسها.

أحياناً يغامر مسافر ويذهب من مدينة إلى أخرى. أهو محتار؟ ما استغرق بضع ثوان في بيرن قد يستغرق ساعات في فرايبورغ أو

أياماً في لوسيرن. في الوقت الذي يستغرقه سقوط ورقة في مكان ما، يمكن أن تتفتح زهرة في آخر. في الفترة التي تستغرقها الصاعقة في مكان يمكن أن يقع شخصان في الغرام في مكان آخر. في الوقت الذي يصبح فيه الطفل رجلاً، يمكن أن تنزلق قطرة مطر على لوح زجاج النافذة. مع ذلك، لا يدرك المسافر هذه الفروق. حين يتحرك من مشهد زمني إلى آخر يتكيف جسمه مع حركة الزمن المحلية.

إذا تناغمت جميع دقات القلوب، وحركات البندول، وخفق انفتاح أجنحة طيور غاق، كيف سيعرف مسافر أنه انتقل إلى منطقة زمنية جديدة؟ إذا بقيت حركة الرغبات البشرية متناسبة مع حركة التموج في بركة، كيف سيعرف المسافر أن شيئاً قد تغير؟

حين يتواصل المسافر مع المدينة التي غادرها يدرك أنه دخل حقلاً زمنياً جديداً. يعرفُ أن المحل الذي يشتري منه ثيابه ازدهر وتنوع، أو أن ابنته عاشت حياتها وشاخت أو ربما أكملت زوجة جاره لتوها أغنية كانت تغنيها حين غادر بوابة منزله الأمامية. حينئذٍ يعرف المسافر أنه مقطوع في الزمن وفي المكان أيضاً. ما من مسافر يعود إلى مدينته الأصلية.

يفرح بعض البشر في العزلة. يجادلون أن مدينتهم هي أبهى المدن فلماذا يريدون التواصل مع مدن أخرى. أين الحرير الذي هو أنعم من حرير مصانعهم؟ أية أبقار أقوى من أبقار مراعيهم؟ أية

ساعات أروع من ساعات محلاتهم؟ يقف بشر كهؤلاء على شرفاتهم في الصباح ولا ينظرون أبدا إلى ما وراء حواف البلدة.

ثمة آخرون يريدون التواصل. يسألون دائماً المسافر النادر الذي يتجول في مدينتهم عن الأمكنة التي زارها، عن لون الغروب في أمكنة أخرى، عن طول البشر وحجم الحيوانات، عن اللغات الشائعة وعادات الخطبة والاختراعات. ومع مرور الزمن يسافر أحد الفضوليين ليرى بنفسه، يغادر مدينته ليستكشف مدناً أخرى، يصبح مسافراً ولا يعود أبداً.

إن عالم محلية الزمن هذا، إن عالم العزلة هذا، ينتج تنوعاً حياتياً غنياً. ذلك أنه بدون امتزاج المدن يمكن أن تتطور الحياة في ألف طريقة مختلفة. يمكن أن يعيش البشر في احدى المدن معاً، ويمكن أن يعيشوا منفصلين في أخرى. يمكن أن يرتدي البشر ملابسهم باحتشام في إحدى المدن ويمكن ألا يرتدوا ثياباً في أخرى. يمكن أن يندب البشر موت الأعداء في إحدى المدن ويمكن ألا يكون لهم أصدقاء أو أعداء في أخرى. يمكن أين يسير البشر في إحدى المدن ويمكن أن يركبوا دراجات غريبة الصنع في أخرى. إن تنوعاً كهذا يوجد في مناطق تبعد عن بعضها مائة كيلو متر. وراء جبل فحسب، وراء نهر فحسب، تجري حياة مختلفة. مع ذلك لا تتحدث هذه الحيوات مع بعضها. والوفرة التي تسببها العزلة تخنقها هذه العزلة نفسها.

٢٢ حزيران ١٩٠٥

إنه يوم تخرج في الثانوية. يقف مائة وتسعة وعشرون طالباً يرتدون قمصاناً بيضاء وربطات عنق بنية على الدرجات الرخامية ويتململون في ضوء الشمس بينما يقرأ المدير أسماءهم. يجلس أولياء الأمور والأقرباء في المرج الأمامي ويصغون بفتور محدقين إلى الأرض ويغفون على كراسيهم. يلقي الطالب المتفوق خطابه بصوت رتيب. يبتسم بوهن حين يستلم ميداليته ثم يرميها في دغل بعد الاحتفال. لا أحد يهنئه. يسير الأولاد وأمهاتهم وآباؤهم وشقيقاتهم دون همة إلى منازلهم في شارع أمتهاوس وأرستراس أو إلى المقاعد المنتظرة قرب بانهوفبلاتز، يجلسون بعد وجبه الظهر، يلعبون الورق لتمضية الوقت وينامون. تُطوى الملابس وتوضع بعيداً إلى أن تأتي مناسبة أخرى. يذهب بعض الأولاد إلى الجامعة في بيرن أو في زوريخ في نهاية الصيف، يعمل البعض في مشاريع آبائهم، يسافر البعض الآخر إلى ألمانيا أو فرنسا بحثاً عن وظيفة. تحصل هذه السفرات بلا مبالاة، بشكل آلي، كتأرجح البندول، كلعبة شطرنج تكون فيها جميع الحركات إجبارية. ذلك أن المستقبل ثابت في هذا العالم.

في عالم كهذا ليس الزمن سائلاً يتفرق ليفسح المجال للأحداث. الزمن صلب، بنية كالعظم تمتد بلا نهاية إلى الأمام والخلف محولة المستقبل والماضي إلى مستحاثتين. إن جميع الأفعال، وجميع الأفكار، وجميع الأنفاس، وتحليقات الطيور كافة، كل هذه الأشياء محددة بشكل كامل وإلى الأبد.

في قاعة الرقص في مسرح ستاد تتحرك راقصة باليه عبر خشبة المسرح وتقفز في الهواء. تتعلق لحظة ثم تهبط على الأرض. تتصالب الرجلان وترفرفان، ينفتح الذراعان في قوس مفتوح. تستعد الآن للدوران على أصابع القدم، تتحرك الرجل اليمنى خلفاً إلى الموضع الرابع، تدفع على قدم واحدة، يتحرك الذراعان لتسريع الدورة. إنها الدقة. إنها ساعة، تفكر وهي ترقص أنها يجب أن تكون قد طارت قليلاً في قفزة واحدة لكنها لا تقدر أن تطير لأن حركاتها ليست لها. إن جميع تفاعلات جسدها مع الأرض أو مع المكان محددة مسبقاً إلى جزء من البليون من الإنش. ما من مكان للطيران. سيشير الطيران إلى غياب اليقين، في الوقت الذي لا يوجد فيه غياب لليقين. وهكذا تتحرك حول خشبة المسرح بقدريه كالساعة لا تقوم بقفزات أو مجازفات غير متوقعة، تلمس الحوّار بدقة ولا تحلم بوثبات غير مخطط لها.

في عالم يكون فيه المستقبل ثابتاً، الحياة رواق لا نهائي من الغرف، إحدى الغرف مضاءة كل لحظة، الغرفة التالية مظلمة لكنها

مجهزة. نسير من غرفة إلى أخرى، ننظر إلى الغرفة المضاءة، اللحظة الحاضرة، ثم نسير. لا نعرف الغرف التي أمامنا لكننا نعرف أننا لا نستطيع أن نغيرها. نحن نظارة حيواتنا.

يسير الصيدلاني الذي يعمل في مجال الأدوية في شارع كوخر عبر المدينة أثناء استراحة بعد الظهر. يقف في السوق عند الحانوت الذي يبيع الساعات، يشتري سندويشة من المخبز المجاور ويتابع سيره نحو الغابة والنهر. إنه مدين لصديقه بنقود لكنه يفضل أن يشتري الهدايا. وبينما يسير معجباً بمعطفه الجديد يقرر أنه يقدر أن يدفع لصديقه العام القادم أو ربما لا يقدر أن يدفع أبداً. ومن يستطيع أن يلومه؟ في عالم يكون المستقبل فيه ثابتاً لا يوجد صواب أو خطأ، ذلك أن الصواب والخطأ يقتضيان حرية اختيار، ولكن إذا كانت جميع الأفعال مختارة مسبقاً، لن تكون هناك حرية اختيار. في عالم المستقبلُ فيه ثابتٌ لا أحد مسؤولاً. الغرف مرتبة مسبقاً. تخطر في ذهن الصيدلاني جميع هذه الأفكار حين يسير على طول الممر عبر برونغاسهالدي ويستنشق هواء الغابة الندي. يسمح لنفسه بابتسامة، كونه مسروراً جداً من قراره. يستنشق الهواء الندي ويشعر بأنه حر في أن يفعل ما يريد، حر في عالم دون حرية.

٢٥ حزيران ١٩٠٥

إنه أصيل يوم الأحد. يطوف البشر في آرستراسي مرتدين ثياب الأحد ومتخمين من عشاء الأحد، يتحدثون بهمس قرب غمغمة النهر. الحوانيت مغلقة. تسير ثلاث نساء في السوق، يتوقفن لقراءة الإعلانات، للتحديق بالواجهات، يتابعن السير بهدوء. ينظف صاحب نُزُل الدرج، يجلس ويقرأ صحيفة، يستند إلى حائط من حجر رملي ويغمض عينيه. الشوارع هاجعة، الشوارع نائمة وفي الجو تحلّق موسيقا كمان.

يقف شاب وسط غرفة تشغل كتبٌ طاولاتها ويعزف على كمانه. إنه يحب كمانه الذي يصدر لحناً جميلاً. وبينما هو يعزف ينظر إلى الشارع في الأسفل ويلمح شخصين قريبين من بعضهما، ينظر إليهما بعينين بنيتين عميقتين ويشيح بصره بعيداً. يقف ثابتاً. موسيقاه هي الحركة الوحيدة، موسيقاه تملأ الغرفة. يقف هادئاً ويفكر بزوجته وطفله الرضيع اللذين يشغلان غرفة الطابق الأرضي.

وبينما هو يعزف، يقف رجل آخر مماثل وسط غرفة ويعزف على كمانه. ينظر الرجل الآخر إلى الشارع في الأسفل، يلمح

شخصين قريبين من بعضهما، يشيح بصره بعيداً ويفكر بزوجته وولده. وبينما هو يعزف، يقف رجل ثالث ويعزف على كمانه. وفي الحقيقة ثمة رابع وخامس، ثمة عدد لا يحصى من الشبان الذين يقفون في غرفهم ويعزفون على كمنجاتهم. ثمة عدد لا يحصى من الألحان والأفكار. وهذه الساعة التي يعزف الشبان أثناءها على كمنجاتهم ليست ساعة واحدة بل ساعات عديدة. ذلك أن الزمن هو كمثل الضوء بين مرآتين. يقفز الزمن إلى الأمام والخلف منتجاً عدداً لا يحصى من الصور والألحان والأفكار. إنه عالم نُسخ لا تحصى.

وبينما هو يفكر، يشعر الرجل الأول بالآخرين، يشعر بموسيقاهم وأفكارهم، يشعر بأنه مكرَّر آلاف المرات، أن غرفته التي تحتوي كتباً تتكرر ألف مرة، يشعر بأن أفكاره مكررة. هل يجب عليه أن يهجر زوجته؟ ماذا عن تلك اللحظة في مكتبة المعهد العلمي العالي حين نظرت إليه عبر المكتب؟ ماذا عن شعرها البني الكثيف؟ لكن، ما الراحة التي قدّمتها له؟ أية عزلة إلا في هذه الساعة وهو يعزف على كمانه؟

يشعر بالآخرين، يشعر أنه مكرر ألف مرة، يشعر أن غرفته مكررة ألف مرة، أن أفكاره مكررة. أي تكرار هو تكراره، هويته الحقيقية، ذاته المستقبلية؟ أيجب أن يترك زوجته؟ ماذا عن تلك اللحظة في مكتبة المعهد العلمي العالي؟ أية راحة قدمتها له؟ أية عزلة عدا في هذه الساعة حيث يعزف على الكمان؟ تقفز أفكاره

إلى الأمام والخلف ألف مرة بين كل نسخة عنه، يضعف مع كل قفزة. أيجب أن يهجر زوجته؟ أية راحة قدمتها له؟ أية عزلة؟ تبهت أفكاره حتى لا يكاد يتذكر ماذا كانت الأسئلة أو لماذا. أية عزلة؟ ينظر إلى الشارع الخاوي ويعزف. تطوف موسيقاه وتملأ الغرفة وحين تمر الساعة التي كانت ساعات لا تحصى، يتذكر الموسيقى فقط.

٢٧ حزيران ١٩٠٥

ينقل رجل متوسط العمر الأحجار من المحجر الذي يقع إلى الشرق من بيرن إلى مكان البناء في هولدرستراسي كل ثلاثاء. يمتلك زوجة وولدين كبرا وغادرا وشقيقاً مسلولاً يعيش في برلين. يرتدي معطفاً صوفياً رمادياً في جميع الفصول. يعمل في المحجر إلى بعد حلول الظلام، يتناول العشاء مع زوجته وينام، يعتني بحديقته أيام الأحد وفي صباحات الثلاثاء يحمّل شاحنته بالأحجار ويذهب إلى البلدة.

حين يأتي يتوقف في السوق ليشتري الطحين والسكر. يمضي نصف ساعة جالساً بهدوء على المقعد الخلفي لكاتدرائية القديس فنسنت. يتوقف عند مكتب البريد ليرسل رسالة إلى برلين. وحين يعبر البشر في الشارع يحدق بالأرض. يعرفه بعض البشر، يحاولون أن يلتقطوا عينيه أو يسلموا عليه. يغمغم ويتابع سيره. حتى حين يسلم أحجاره في هولدرستراسي لا يستطيع أن ينظر إلى عيني البنّاء. يُشيح بصره جانباً ويتحدث مع الحائط حين يستجيب لثرثرة البنّاء الودودة، يقف في زاوية حين توزن أحجاره.

منذ أربعين عاماً، في بعد ظهر أحد أيام آذار شخّ تحته في المدرسة أثناء الدرس. لم يستطع أن يحبسها. حاول أن يبقى على الكرسي لكن الأولاد الآخرين شاهدوا البقعة المبللة على بنطاله وجعلوه يدور في الغرفة بشكل متواصل. أشاروا إلى البقعة المبللة على بنطاله وزأروا. في ذلك اليوم بدا ضوء الشمس كجداول حليب سُكبت من النافذة وسُفحت على ألواح أرض الغرفة. تدّلت دزينتان من السترات على علاقات قرب الباب.

امتدت علامات الحوّار على اللوح وهي أسماء عواصم أوروبا. امتلكت المقاعد سطوحاً فتّالةً وأدراجاً. على مقعده نُحت اسم جوهان في أعلى اليمين. كان الجو رطباً بسبب أنابيب البخار. وكانت ساعة بعقربين حمراوين كبيرين تشير إلى الثانية والربع. استهزأ الصبية منه، استهزأوا منه وهم يطاردونه في الغرفة والبقعة المبللة على بنطاله. صاحوا وسمّوه: «فتى المثانة، فتى المثانة، فتى المثانة».

أصبحت تلك الذكرى حياته. حين يستيقظ في الصباح يكون الصبي الذي شخّ تحته، حين يعبر البشر في الشارع يعرف أنهم يشاهدون بقعة مبللة على بنطاله، ينظر إلى بنطاله ثم يشيح بصره بعيداً، حين يزوره ولداه، يبقى داخل غرفته ويتحدث معهما من خلال الباب. إنه الصبي الذي لم يستطع أن يحبسها.

لكن ما هو الماضي؟ هل من المرجح أن حقيقة الماضي مجرد وهم؟ أيمكن أن يكون الماضي مِشكالاً[1]، نموذج صور تتبدل مع كل هبوب نسيم مفاجئ، مع كل فكرة وضحكة؟ وإذا كان التبدل في كل مكان، كيف سنعرف؟

في عالم يتبدل فيه الماضي يستيقظ عامل المحجر في أحد الصباحات ولم يعد هو الصبي الذي لم يستطع أن يحبسها. كان ذلك الأصيل الذي تلاشى منذ زمن بعيد أصيلاً آخر فقط. في ذلك الأصيل الذي نُسي، جلس مع أطفال آخرين بعد الانصراف من المدرسة. يمتلك محجراً وتسع بزّات الآن. يشتري آنية فاخرة لزوجته ويقوم بنزهات طويلة معها بعد ظهر أيام الأحد. يزور أصدقاء في شارع أمتهاوس وآرستراس، يبتسم لهم ويصافحهم. يرعى حفلات موسيقية في الكازينو.

في صباح ما يستيقظ و...

حين تشرق الشمس فوق المدينة يتثاءب عشرة آلاف شخص ويتناولون الخبز المحمص والقهوة. يملأ عشرة آلاف شخص أروقة شارع كرام المقنطرة أو يذهبون إلى العمل في شارع شبايشا أو يأخذون أولادهم إلى الحديقة. يمتلك كل منهم ذكريات عن أب لم يستطع أن يحب ولده، عن آخر يربح دائماً، عن عاشق بقبلة

(١) أداة تحتوي على قطع متحركة من الزجاج الملون ما إن تتغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية المختلفة الألوان.

لذيذة، عن لحظة غش في الامتحان المدرسي، عن الهدوء الناتج عن سقوط ثلج جديد، أو نشر قصيدة. إن هذه الذكريات هي كقمح في الريح، أحلام هاربة، أشكال في غيوم. والأحداث التي حصلت مرة تفقد حقيقتها، تتبدل في لمحةٍ، في عاصفةٍ، في ليلٍ. ومع مرور الزمن، لا يحدث الماضي أبداً. لكن من يستطيع أن يعرف؟ من يستطيع أن يعرف أن الماضي ليس حقيقياً كهذه اللحظة حين تتدفق الشمس فوق جبال الألب البيرينية ويغني البقالون وهم يرفعون ظلات حوانيتهم ويبدأ عامل المحجر تحميل شاحنته.

٢٨ حزيران ١٩٠٥

تقول الجدة وهي تربت على كتف ولدها: «لا تأكل كثيراً، ستموت قبلي وعندئذٍ من سيعتني بفضّتي؟» تقوم الأسرة بنزهة على ضفة نهر آري إلى الجنوب من بيرن بعشرة كيلومترات. تنهي الفتيات غداءهن ويطاردن بعضهن بعضاً حول شجرة تنوب. أخيراً يُصَبْن بالدوار ويتساقطن على العشب الكثيف، يستلقين هادئات لحظة ثم يدرن على الأرض إلى أن يدُخْن ثانية. يجلس الابن وزوجته المفرطو السمنة والجدة على بطانية ويأكلون لحم البقر المجفف والجبنة والعجين الحامض مع الخردل والعنب وكعكة شوكولاتة. وبينما هم يأكلون ويشربون يهب نسيم عليل فوق النهر ويستنشقون هواء الصيف العذب. ينزع الوالد حذاءه ويحرك أصابع قدميه في العشب.

فجأة يحلق فوقهم سرب من الطيور. يقفز الشاب عن البطانية ويركض وراءه دون أن ينتعل حذاءه. يختفي فوق التل. ينضم إليه آخرون شاهدوا الطيور من المدينة.

يحط طير على شجرة. تتسلق امرأة الجذع وتتمدّد لتمسك الطائر

بيد أنه يقفز بسرعة إلى غصن أعلى. تتسلق إلى الأعلى، تقف بحذر على غصن وتزحف إلى الأمام. يقفز الطائر عائداً إلى الغصن السفلي، وبينما تتعلق المرأة عاجزة بالشجرة يحط طائر آخر ليأكل البذار. ينسلُّ رجلان خلفه حاملين وعاءً زجاجياً على هيئة جرس. إلا أن الطائر أسرع منهما، يحلق في الجو ويندمج في السرب.

تطير الطيور عبر البلدة. يقف خوري كاتدرائية القديس فنسنت في برج الناقوس محاولاً استدراج الطيور إلى النوافذ المقوسة. تشاهد عجوز في حدائق شارع كلايينشانسا الطيور تبيت مؤقتاً في دغل. تسير ببطء نحوها حاملة وعاءً جرسي الشكل، تعرف أنها لا تملك فرصة لاصطياد طائر، ترمي وعاءها على الأرض وتشرع في البكاء.

وهي ليست وحدها المحبطة. في الحقيقة يرغب جميع الرجال وجميع النساء بطائر، ذلك أن سرب البلابل هذا هو الزمن. يرفرف الزمن ويتململ ويتقافز مع هذه الطيور. اضطد أحد هذه الطيور وضعهُ تحت الوعاء الجرسي الشكل يتوقف الزمن. إنّ اللحظة متجمدة بالنسبة لجميع البشر والأشجار والتربة العالقة في الداخل.

من النادر أن تُصطاد هذه الطيور، والأطفال الذين يمتلكون وحدهم السرعة الكافية لاصطيادها لا يرغبون بإيقاف الزمن. ذلك أن الزمن بالنسبة إليهم يتحرك مسبقاً ببطء. يندفعون من لحظة إلى لحظة متلهفين لأعياد الميلاد ورؤوس السنة، بالكاد يقدرون على

الانتظار بقية حياتهم. أما الكبار فيرغبون بإيقاف الزمن لكنهم بطيئون جداً ومنهمكون بحيث لا يقدرون على اصطياد أي طائر. يتوقون إلى الإمساك بدقيقة واحدة وهم جالسون إلى طاولة الإفطار يتناولون الشاي أو إلى الإمساك بلحظة حين تعلق الحفيدة محاولة الخروج من ثيابها أو بأصيل حين تعكس شمس الشتاء الثلج وتغمر غرفة الموسيقا بالضوء. لكنهم بطيئون. يجب أن يراقبوا الزمن يقفز ويطير بعيداً.

في تلك اللحظات عندما يتم اصطياد طائر، يستمتع الصيادون باللحظة التي تتجمّد. يتشمّمون الموضع الدقيق للأسرة والأصدقاء، التعبيرات الوجهية، السعادة الأسيرة الناجمة عن جائزة أو ولادة أو قصة حب، رائحة القرفة العالقة أو البنفسج المضاعف البياض. يستمتع الصيادون باللحظة المجمدة لكنهم يكتشفون حالاً أن البلبل ينفق، تبهت أغنيته الواضحة التي تشبه صوت الناي وتصمت، وتذوي اللحظة الأسيرة وتموت.

خاتمة

تدق ساعة برج ثماني مرات. يرفع موظف براءات الاختراع الشاب رأسه عن المكتب، يقف ويتمدّد، يسير إلى النافذة.

في الخارج، البلدة مستيقظة. تتجادل امرأة مع زوجها وهي تناوله غداءه. تتبادل مجموعة من الأولاد في طريقها إلى جمنازيو شارع تسويوهاوس قذف كرة قدم وتتحدث بحماس عن عطلة الصيف. تسير امرأتان بخفة نحو السوق حاملتين كيسي تسوّق فارغين.

بعد وقت قصير يدخل موظف براءات اختراع مسؤول من الباب، يتجه إلى مكتبه ويبدأ عمله دون أن يتفوّه بكلمة. يستدير آينشتاين وينظر إلى الساعة التي في الزاوية: إنها الثامنة وثلاث دقائق. يلعب بقطع نقدية في جيبه متململاً.

في الثامنة وأربع دقائق تدخل ضاربة الآلة الكاتبة. تشاهد آينشتاين حاملاً مخطوطته المكتوبة بخط اليد وتبتسم. لقد طبعت سابقاً عدداً من أوراقه الشخصية في وقت فراغها وكان دائماً يدفع

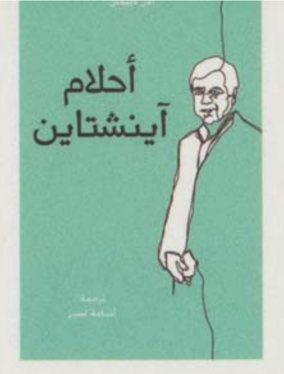
برحابة صدر ما تطلبه. إنه هادئ، رغم أنه يروي النكات أحياناً. إنها تحبه.

يسلمها آينشتاين مخطوطته التي تحوي نظريته في الزمن. إنها الثامنة وست دقائق. يسير إلى مكتبه، ينظر إلى كومة الملفات، يتجه إلى رف كتب ويبدأ بإخراج أحد الدفاتر. يستدير ويعود إلى النافذة. الجو صاحٍ بشكل مخالف للعادة في آخر حزيران.

وفوق بناء شقة يستطيع أن يرى أطراف جبال الألب الزرقاء وقممها البيضاء. في الأعلى النقطة السوداء الصغيرة التي هي لطائر تقوم بدورات بطيئة في السماء.

يسير آينشتاين إلى مكتبه، يجلس لحظة ثم يعود إلى النافذة. يشعر أنه فارغ. يفقد اهتمامه بمراجعة براءات الاختراع أو بالتحدث إلى بيسو أو بالتفكير بالفيزياء. يشعر أنه فارغ ويحدق دون اهتمام إلى النقطة السوداء الصغيرة وإلى جبال الألب.

الفهرس



في الليل يحلم البشر بالسرعة والشباب والفرصة. في عالم السرعة الكبيرة هنا أدركت إحدى الحقائق ببطء.